المكان في شعر فتيان الشاغوري

إعداد

د.آمال إبراهيم مصطفى

الأستاذ المساعد بكلية التربية جامعة عين شمس

عدد يونيو ٢٠١٨

ملخص

يهدف هذا البحث إلى تعرف دلالة المكان وقيمته النفسية والجمالية في شعر فتيان الشاغوري ، وبخاصة أن المكان بلفظه العام ودلالته الخاصة ، له شيوع وتكرار بارز في شعره . وقد قامت الدراسة على تناول دلالة المكان لغة واصطلاحا ، حيث تعرف ما يشير إليه مفهومه في المعاجم اللغوية من جهة ، وعند الفلاسفة وعلماء الرياضيات والفيزياء والاجتماع والأدب من جهة أخرى ؛ ذلك لأن المكان موضوع تتقاسمه علوم وميادين متنوعة. وانقسمت دراسة المكان في شعر الشّاغوري إلى عدة محاور ؛ المحور الأول يتناول البعد الانتمائي للمكان ودلالته النفسية في شعره ، والمحور الثاني يتصل بالمكان والممدوح حيث توظيفه لألفاظ المكان العام والخاص في المديح والاتكاء على ما لها من إيحاءات معنوية ، استطاع أن يستثمرها في الوصول إلى معانيه في سهولة وانسيابية ، والمحور الثالث يتناول المكان وعلاقته بالمرأة في شعره . أما المحور الأخير فخُصص لكيفية توظيف الشاغوري للمكان في أغراض شعره المتنوعة وقيمة ذلك في شعره .

Abstract

The purpose of this research is to know the significance of the place and its psychological and aesthetic value in the poetry of "**Fetian Al-Shagoury**" especially that the place with its general meaning and its special significance, has a common and prominent recurrence in his poetry.

The study deals with the meaning of the place in terms of language and terminology. It defines what its concept refers to in the linguistic dictionaries on the one hand, and philosophers, mathematicians, physicists, sociologists and literature on the other, because the place is a subject shared by different sciences and fields.

And the study of the place in the poetry of the **Al-Shagoury**' Poetry to several points; the first one deals with the affiliation to the place and psychological significance in his poetry. The second one relates to the place and praised where the use of the words of public and private place in praise and reliance on the implications of moral, able to invest in reaching its meaning ease and smooth. The third one deals with the place and its relationship with women in his poetry. The last one was devoted to how to placement **Al-Shagoury** for the place in the purposes of his poetry varied and the value of that in his poetry.

المكان لغة واصطلاحا:

المكان هو الموضع[١]، وعند ابن دريد هو مكان الإنسان وغيره[٢]. ويجمع على أمكنة وأماكن ، وأماكن هي جمع الجمع[٣].

وهو "في أصل تقدير الفِعْل : مَفْعَل ؛ لأنه موضع للكينونة ، غير أنه لما كَثُر أجروه في التصريف مجرى الفَعال"[٤].

وقد يأتي المكان بمعنى المنزلة ، فقد ذكر صاحب اللسان أن المكان والمكانة واحد[٥] ، وأورد الأزهري قولهم "فلان مكين عند فلان : بيّن المكانة ، يعني المنزلة"[٦].

وللمكان مرادفات عديدة "تستعمل في اللغة للدلالة عليه ؛ منها المحل ، والأين والملاء ، والحيز والموضع والخلاء"[٧].

وقد أورد الزبيدي تعريفا للمكان يقترب من معناه الاصطلاحي الفلسفي ، حيث يقول: "المكان : الموضع الحاوي للشيء ، وعند المتكلمين أنه عرض ، وهو اجتماع جسمين ، حاوٍ ومَحْوِيّ ، وذلك لكون الجسم الحاوي محيطا

---

(١) الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، مؤسسة الرسالة ، ط/٦ ، ١٩٩٨، ص١٢٣٥ ، مادة مكن.

(٢) ابن دريد : كتاب جمهرة اللغة ، تحقيق رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين ، ط/١ ، ١٩٨٧ ، ص٩٨٣ ، مادة مكن.

(٣) ابن منظور : لسان العرب ، دار المعارف ، ج/٦ ، ص٤٢٥٠ ، مادة مكن.

(٤) الخليل بن أحمد الفراهيدي : كتاب العين ، ترتيب وتحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط/١ ، ٢٠٠٣ ، ج/٤ ، ص١٦١ ، باب الميم.

(٥) ابن منظور : لسان العرب ، ج/٦ ، ص٤٢٥٠ ، مادة مكن.

(٦) الأزهري : معجم تهذيب اللغة ، تحقيق علي حسن هلالي ، مراجعة محمد علي النجار ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ج/١٠ ، ص٢٩٢، مادة مكن.

(٧) حسن مجيد العبيدي : نظرية المكان في فلسفة ابن سينا ، مراجعة وتقديم عبد الأمير الأعسم، دار الشئون الثقافية العامة ، آفاق عربية ، العراق ، بغداد ، ط/١ ، ١٩٨٧، ص١٨.

بالمحويّ ، فالمكان عندهم هو المناسبة بين هذين الجسمين"[٨]. فهو بذلك قد قرّب المفهوم اللغوي للمكان من المفهوم الاصطلاحي له[٩].

وقد جاء تعريف المكان في المعاجم الفلسفية بأنه "المحل المحدد الذي يشغله الجسم . تقول مكان فسيح ومكان ضيق ، وهو مرادف للامتداد"[١٠].

أما المكان هندسيا فهو "وسط غير محدد يشتمل على الأشياء ، وهو متصل ومتجانس لا تميّز بين أجزائه ، وذو أبعاد ثلاثة هي الطول والعرض والارتفاع ... وإذا جمع بين الزمان والمكان في تصور واحد نشأ عنهما مفهوم جديد هو المكان الزماني ، وله أربعة أبعاد هي الطول والعرض والارتفاع والزمان"[١١].

والمكان والزمان عند عالم الاجتماع موريس هاليفاكس "إطاران اجتماعيان للذاكرة ، حيث يكونان الإطار الذي تختزن فيه الذكريات الاجتماعية ، وبمعنى آخر يصبح الزمان والمكان شرطين ضرورين لحفظ التراث الثقافي أو الحضاري للمجتمع الإنساني"[١٢].

---

(٨) الزبيدي : تاج العروس ، تحقيق عبد الكريم العزباوي ، راجعه ضاحي عبد الباقي ، خالد عبد الكريم جمعة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ط/١ ، ج/٣٦ ، ص١٨٩.

(٩) غيداء أحمد سعدون : المكان والمصطلحات المقاربة له ، دراسة مفهوماتية ، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية ، كلية التربية الأساسية ، جامعة الموصل ، العراق ، ٢٠١١، مج/١١ ، ع/٢، ص٢٤٤.

(١٠) جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت – لبنان ، مكتبة المدرسة ، بيروت – لبنان ، ١٩٨٢ ، ج/٢ ، ص٤١٢.

(١١) مجمع اللغة العربية : المعجم الفلسفي ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص١٩١.

(١٢) علي عبد المعطي محمد : قضايا الفلسفة العامة ومباحثها ، دار المعرفة الجامعية ، الأسكندرية ، ط/٢ ، ١٩٨٤ ، ص١٢٧.

وقد نشأ المفهوم الاصطلاحي للمكان مرتبطا بالفلسفة ، حيث نجد أول استعمال اصطلاحي للمكان عند أفلاطون[١٣] ، فالمكان عنده هو "الحاوي للموجودات المتكثرة ومحل التغير والحركة في العالم المحسوس ، عالم الظواهر غير الحقيقي"[١٤]. فالمكان عند أفلاطون غير مستقل عن الأشياء ، ولا يلمس بالحواس ، وعملية إدراكه أمر بالغ الصعوبة لأنها تحتاج إلى نوع عسير من التجريد[١٥].

أما تلميذه أرسطو فقد بحث في المكان بحثا مفصلا ، وبيّن "أنه موجود بدليل أنه حيث يوجد جسم فيمكن أن ينتقل عنه ويشغل محله جسم آخر"[١٦]. وهو عنده على نوعين : خاص إذ لكل جسم مكان يشغله ، ومشترك حيث يوجد فيه جسمان أو أكثر[١٧]. ويتميز المكان عند أرسطو بعدة خصائص ؛ فهو الحاوي الأول ، وهو ليس جزءا من الشيء المحويّ ، كذلك هو مساوٍ للشيء المحويّ ، وفيه الأعلى وفيه الأسفل ، إنّ المكان عنده ليس صورة أو بُعْد[١٨] ،

---

(١٣) حسن مجيد العبيدي : نظرية المكان في فلسفة ابن سينا ، ص١٩.

(١٤) علي عبد المعطي محمد : قضايا الفلسفة العامة ومباحثها ، ص١٢٥. وانظر : عبد الرحمن بدوي : مدخل جديد إلى الفلسفة ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط/١ ، ١٩٧٥، ص١٩٧.

(١٥) انظر : حسن مجيد العبيدي : نظرية المكان في فلسفة ابن سينا ، ص٢٧ ، ٢٨.

(١٦) عبد الرحمن بدوي : موسوعة الفلسفة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط/١ ، ١٩٨٤، ج/٢ ، ص٤٦١.

(١٧) علي عبد المعطي محمد : قضايا الفلسفة العامة ومباحثها ، ص٢٢٨.

(١٨) السابق نفسه ، ص٤٦١.

بل هو "نهاية الجسم المحيط"[١٩]. وهو "نهاية الجسم المحتوى تماسَّ عليها ما يحتوي عليه ، أعني الجسم الذي يحتوي المتحرك حركة انتقال"[٢٠] .

أما المكان عند إقليدس فهو ذو ثلاثة أبعاد هي الطول والعرض والعمق[٢١].

وجاء تعريف المكان عند فلاسفة المسلمين بأنه "السطح الباطن للجسم الحاوي المماس للسطح الظاهر للجسم المحويّ"[٢٢]. فمن الذين اتبعوا تعريف أرسطو للمكان الكندي والفارابي وإخوان الصفا وفلاسفة بغداد[٢٣].

وذهب المتكلمون إلى أن "المكان بُعْد موهوم مفروض ، يشغله الجسم ويملؤه على سبيل التوهم ، وهو الخلاء"[٢٤].

أما ابن سينا فيعرف المكان بأنه محل يحوي الأجسام ويطلق عليه السطح المحيط بالجسم [٢٥]. وهو بذلك يتفق مع الموقف الفلسفي العام من المكان كما جاء عند أرسطو[٢٦].

وإذا انتقلنا إلى الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، فإننا نجد مفهوم المكان يشغل أهمية خاصة ، فهو عند ديكارت يمثل (الممتد في الأبعاد الثلاثة) ، وعند

---

(١٩) أرسطوطاليس : الطبيعة ، حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي ، ط/٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ ، ص٣١٢.
(٢٠) عبد الرحمن بدوي : موسوعة الفلسفة ، ج/٢ ، ص٤٦١.
(٢١) السابق نفسه ، ج/٢ ، ص٤٦٢.

(٢٢) عبد الرحمن بدوي : موسوعة الفلسفة ، ج/٢ ، ص٤٦١.
(٢٣) حسن مجيد العبيدي : نظرية المكان في فلسفة ابن سينا ، ص١٧٩.
(٢٤) التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، تحقيق رفيق العجم ، علي دحروج ، مكتبة لبنان ، ط/١ ، ١٩٩٦ ، ص١٦٣٥.
(٢٥) حسن مجيد العبيدي : نظرية المكان في فلسفة ابن سينا ، ص١٢٣.
(٢٦) السابق نفسه ، ص١٢٤.

اسبينوزا ومالبرانش يمثل (الامتداد غير المتناهي) ، وعند جون لوك (فكرة لا محدودة) ، أما عند نيوتن وكلارك فكما هو عند أفلاطون (حاوٍ للأشياء مع إضافة خاصية أخرى هي اللاتناهي والأزلية والأبدية والقدم وعدم الفناء)[٢٧].

وفي القرن التاسع عشر ظهرت مفاهيم جديدة للمكان ، وأصبح مفهوم إقليدس غير كافٍ لتفسير علاقة الأشياء بالمكان ، حيث أثبت الرياضيون في هذا القرن إمكانية تصور أبعاد عديدة للمكان ، وأن المكان الإقليديسي ليس إلا واحدا من بين أنواع المكان[٢٨].

وعلى أية حال فإن "مفهوم المكان محلا أو حاويا أو ممتدا ، هو اصطلاح أنشأه الإنسان لكي يحدد موضعه في المكان ، ولكي يفهمه فهما عقليا . ولهذا لم تجد اللغة والفلسفة مفردة تدل دلالة متميزة على حاوي الأشياء غير مفردة المكان نفسها . وهي لفظة ذات دلالة تعبر تعبيرا واضحا عما يراد منها"[٢٩].

وقد صنف غالب هلسا المكان في "أربعة أنواع :

١_ المكان المجازي وهو المكان الذي نجده في رواية الأحداث المتتالية ، حيث نجد المكان ساحة للأحداث ومكملا لها ، وليس عنصرا مهما في العمل الروائي ، إنه مكان سلبي مستسلم يخضع لأفعال الشخصيات.

---

(٢٧) السابق نفسه ، ص٢٠.

(٢٨) عبد الرحمن بدوي : موسوعة الفلسفة ، ج/٢ ، ص٤٦١. وانظر : حسن مجيد العبيدي : نظرية المكان في فلسفة ابن سينا ، ص٢٠.

(٢٩) حسن مجيد العبيدي : نظرية المكان في فلسفة ابن سينا ، ص٢٠.

٢_ المكان الهندسي : وهو المكان الذي تعرضه الرواية بدقة وحياد من خلال أبعاده الخارجية.

٣_ المكان كتجربة معاشة داخل العمل الروائي ، وهو قادر على إثارة المكان عند المتلقي.

٤_ ثم أضاف هلسا (المكان المعادي) كالسجن والمنفى والطبيعة الخالية من البشر، ومكان الغربة"[٣٠].

إن المكان في الأدب ليس مجالا هندسيا تضبط حدوده وأبعاده مثلما الشأن بالنسبة للأمكنة الجغرافية ، إنه "يتشكل في التجربة الإبداعية انطلاقا واستجابة لما عاشه وعايشه الأديب ، على مستوى اللحظة الآنية ماثلا بتفاصيله ومعالمه ، أو على مستوى التخيل وافدا بملامحه وظلاله"[٣١].

والمكانية في الأدب هي "الصورة الفنية التي تذكرنا أو تبعث فينا ذكريات بيت الطفولة . ومكانية الأدب العظيم تدور حول هذا المحور"[٣٢]. فالمكان في الأدب أو "في التجربة الإبداعية بوجه أخص ، هو المكان الذي يشعرنا بوجوده وقد يتداخل إحساسنا به تداخلا يصعب عزلنا عنه . فقد نقف على عتبة البيت الذي ولدنا فيه فنشعر أن ثمة علائق وشيجة تعيدنا إلى الرحم ، فيتحول المكان على إيقاع مشاعرنا ، ويكتسب مظاهر معينة إيجابا وسلبا ،

([٣٠]) محمد عزام : شعرية المكان السردي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٥ ، ص٦٧ ، ٦٨.

([٣١]) باديس فوغالي : الزمان والمكان في الشعر الجاهلي ، عالم الكتب الحديث ، جدار للكتاب العالمي ، إربد ، ط/١ ، ٢٠٠٨ ، ص١٨١.

([٣٢]) غاستون باشلار : جماليات المكان ، ترجمة غالب هلسا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ط/٢ ، ١٩٨٤ ، مقدمة المترجم ، ص٦.

حسب إحساسنا وما تستوجبه مشاعرنا منه"[٣٣]. فاستعادة المكان في الأدب لا تكشف عن وجوده الواقعي "بل عن بعده العاطفي الذي اندسّ في موجوداتنا الشعورية والجمالية ، فهو يعيش في داخل جهازنا العصبي ، كمجموعة من ردود الأفعال التي لا تكرر الوجود المادي المشخص له ، بل بوصفه ذكرى ، ومن هنا تصبح صورته ذات طبيعة شعرية"[٣٤]. والوسيلة الغالبة في الاستعادة هي الذاكرة ، وهي "لا تستحضر المكان بوصفه وجودا ماديا شاخصا في أبعاده التاريخية وملامحه الواقعية ، بل عبر تأملات لها حيويتها وخصبها الشعوري الذاهب بعيدا باتجاه الطفولة وتحسسها الانفعالي ، وانشغالاتها وهواجسها التي تضفي على المكان ما تعايشه من حس وذائقة وانبهار متواتر بموجوداته وتكويناته"[٣٥].

ولن يدّعي التحليل الأدبي "فهمه السليم للنص إذا هو تجاهل أو تجاوز النظر إلى المكان ؛ لأن مثل هذا الصنيع يعد تحليلا منبت الصلة عن إطاره المادي والمعنوي . وكل ملامسة للمكان إنما هي ملامسة لشبكة العلاقات التي تربط الأشخاص بالمجال المعيشي ارتباط وجود وانتماء وهوية ، فالمسألة المكانية لا تقف عند حدود التأطير وحسب ، وإنما تتعداها إلى مجالات أوسع

([٣٣]) باديس فوغالي : الزمان والمكان في الشعر الجاهلي ، ص١٨٢.
([٣٤]) علي حداد : جماليات المكان عبر ذاكرة الطفولة (قراءة في الانبهار والدهشة لزيد مطيع دماج) ، أوراق ندوة زيد مطيع دماج ، سيرة وطنية حافلة بالإبداع ، اليمن ، يوليو ، ٢٠٠٩ ، ص٣.
([٣٥]) السابق نفسه ، ص١.

تضطلع بها الدراسات الإنسانية في مختلف اهتماماتها وحقولها"[٣٦]. وحين يفتقد العمل الأدبي المكانية ؛ فإنه "يفقد خصوصيته وبالتالي أصالته"[٣٧].

وقد تعددت ألفاظ االمكان العام والخاص بشكل لافت في شعر الشاغوري ، وكان لهذا الشيوع دلالته النفسية والجمالية في فنون شعره المختلفة ، وهو ما يسعى البحث إلى تبيينه وتوضيحه عبر علاقات المكان في شعره.

أولا : البعد الانتمائي للمكان في شعر الشّاغُوري:

ولد فِتيان الشاغوري في بانِيَاس على ساحل حمص ، ثم انتقل به أبوه صبيا إلى دمشق حيث سكن أحد أحيائها ، وهو حي الشَّاغُور الذي يُنسب إليه فِتيان[٣٨]. وقضى فتيان فترة طويلة من حياته في إحدى ضواحي دمشق وهي قرية الزَّبَدَاني ، حيث اشتغل بها معلما للصبيان وعُرف بالشّاغوري المعلم[٣٩].

ويكشف ديوانه عن كلفه الشديد بدمشق حتى أن أحد المترجمين له قد أطلق عليه شاعر دمشق[٤٠]، حيث شكلت دمشق غرامه الأكبر ، فهو يرى أن المولى سبحانه وتعالى قد اصطفاها وفضلها على شتى بقاع الدنيا. يقول[٤١]:

---

(٣٦) حبيب مونسي : فلسفة المكان في الشعر العربي ، قراءة موضوعاتية جمالية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠١ ، ص٧.

(٣٧) غاستون باشلار : جماليات المكان ، ص٦.

(٣٨) انظر : العماد الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق شكري فيصل ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٥٥ ، قسم شعراء الشام ، ج/١ ، ص٢٤٧.

(٣٩) انظر : ابن خلّكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر، بيروت ، ١٩٧٨ ، مج/٤ ، ص٢٤.

(٤٠) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، تحقيق بشار عواد معروف ، محبي هلال السرحان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط/١١ ، ١٩٩٦، ج/٢٢ ، ص١٤٣.

(٤١) فتيان الشاغوري : ديوان فتيان الشاغوري ، تحقيق أحمد الجندي ، مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧٦ ، ص٥٨٩.

وَاذكُر دِمَشقَ فَإِنَّ اللهَ فَضَّلَها عَلى البِلادِ بِما لا يُمتَرى فيهِ

بل يراها بلا مثيل أو نظير ، فالمولى عز وجلّ حباها بما لم يهبه لسواها من بلدان . يقول(٤٢):

لَم يَخلُقِ الرَحمَنُ يَوماً مِثلَها أَبَداً وَظَنّي أَنَّهُ لَن يَخلُقا

ويؤكد فِتيان على تفرد دمشق فيشبهها بالشمس قائلا(٤٣):

دِمَشقُ كَالشَمسِ لا نَظيرَ لَها يوجَدُ في سائِرِ التَصاويرِ

ويكثر من نعتها بالفردوس ، فترابها من مسك وحصاها من ياقوت أما ماؤها فهو صهباء معتقة ينتشي بها شاربها . يقول(٤٤):

دِمشقُ هِيَ الفِردَوسُ وَالمِسكُ تُربُها وَحَصباؤُها الياقوتُ وَالماءُ

إنها الجنة بما يجري فيها من نعيم ، وأهلها الولدان والحور العين . يقول فتيان(٤٥):

هِيَ جَنَّةٌ مَحفوفَةٌ بِنَعيمِها في ظِلّها وِلدانُها وَالحورُ

وهو دائم الدعاء لها بالسقيا ، وكثيرا ما يُجري مقارنة بينها وبين بغداد ، مصورا شغف بغداد بالانتساب إليها . يقول(٤٦):

سَقى دِمَشقَ اللهُ غَيثاً مُحْسِبًا مِن مُستَهَلِّ دِيمَةٍ دَفّاقِها
تَوَدُّ زَوراءُ العِراقِ أَنَّها مِنها وَلا تُعزَى إِلى عِراقِها

---

(٤٢) ديوانه ، ص٢٩١.
(٤٣) السابق نفسه ، ص١٧٧.
(٤٤) السابق نفسه ، ص٣٣٠.
(٤٥) السابق نفسه ، ص١٦٨.
(٤٦) السابق نفسه ، ص٢٨٨.

ويلحّ على هذه المقارنة متخذا منها مدخلا للتيه والعجب بدمشق ، ويتكئ اتكاءً حسنا على الاشتقاق في تصوير حلم البغدادي بأن يصير دمشقيا. يقول(٤٧):

كَم مِن غَريبٍ جاءها مُتَبَغدِدٍ فَبَدَت مَحاسِنُها لَهُ فَتَدَمشَقا

وهو شديد الكلف بدمشق حتى أنه يتصورها في حلبة سباق دائم مع سائر بقاع الدنيا ، وأنّ الصدارة لها دائما وأبدا فالمكان "الذي نحبه يرفض أن يبقى منغلقا بشكل دائم ، إنه يتوزع ويبدو وكأنه يتجه إلى مختلف الأماكن دون صعوبة ، ويتحرك نحو أزمنة أخرى"(٤٨). إن دمشق حاضرة في وجدانه دائما ومفضلة على سائر البلدان . يقول(٤٩):

بَلَـدٌ تَـراهُ إِذا الـبِلادُ تَسـابَقَت فـي حَلبَـةِ التَفضيلِ جاءَ الأَسبَقا

وكل أنحاء دمشق تتصدر وجدانه وتستقطبه دون غيرها ، فسطر والنيربين ومقرى أحب إليه من مصر ، وهو يتوسل بالتقليد الشعري القديم حيث وجود خليلين يحاوراه ، ليؤكد أنّ دمشق قد ملكت عليه كيانه ، ويسوق استفهاما تعجبيا ممن يعجز عن رؤية ما يراه ويستشعر ما يستشعره ، فيقول(٥٠):

يـا خَليلَـيَّ خَلِّيـا ذِكـرَ مِصـرا لَسـتُ أَهـوى فـي الأَرْضِ مـا عِشْـتُ
كَيفَ أَهوى مِصراً وَأَترُكُ فـي جِلْـ ـلَقَ سَـطْرَا وَالنَّيْـرَبَيْنِ وَمُقْـرَا(٥١)

---

(٤٧) ديوانه ، ص٢٩٠.
(٤٨) غاستون باشلار : جماليات المكان ، ص٧٢.
(٤٩) السابق نفسه ، ص٢٩٠.
(٥٠) السابق نفسه ، ص١٧٠.
(٥١) سَطر والنيربين ومُقرى : كلها مواضع في دمشق .

والشاغوري مولع بدمشق أرضا وسماء وتاريخا ، فهي في عينه مغبوطة من القاصي والداني ، ويعود مرة أخرى لمقارنتها ببغداد مؤكدا أن حضارتها لها الصدارة وصانعيها ليس لهم شبيه . يقول[٥٢]:

دِمَشقُ بِالتاريخِ مَغبوطَةٌ مَحسودَةٌ مِن كُلِّ قاصٍ وَدانْ
تاريخُ بَغدادَ لَدى ذِكرِهِ كَنُقطَةٍ في مُعظَمِ النَّهرَوانْ
فَما لِمَن صَنَّفَهُ مُشبِهٌ وَاللَّيثُ لا يُشبِهُهُ الثعلبانْ

ولعل من أبرز مظاهر البعد الانتمائي للمكان في شعره عنايته بوصف الطبيعة الدمشقية ، والحرص على ذكر معالمها الخالدة ، فمن ذلك المسجد الجامع بقبته المعروفة بقبة النَّسْر ، والتي ارتفعت فبلغت عنان السماء حتى كأنها لتشك السماء بسفودها . يقول[٥٣]:

زَهَت بِجامِعِها وَالنَسرِ مُمتطِيا قَوادِمَ النَسرِ تَتلوها خَوافيهِ

وتتملكه مشاعره وتسيطر عليه عاطفته تجاه كل ركن من معالم دمشق ، فيأخذه الحنين إلى أبوابها وبخاصة باب جيرون بنافورته الشهيرة التي يندفع ماؤها متصلا بكواكب السماء ، وكذلك (باب البريد) الذي صوره جنة في الحسن والبهاء . يقول[٥٤]:

وَبابُ جيرونَ قَد فارَت بِساحَتِهِ فَوّارَةٌ هِيَ ظِئرُ الجَدي تَرويهِ
يا حَبَّذا جَنَّةٌ بابُ البَريدِ بِها وَالحُسنُ قَد حُشِيَت مِنهُ حَواشيهِ

---

(٥٢) السابق نفسه ، ص٥٠٥.

(٥٣) ديوانه ، ص٥٨٩.
(٥٤) السابق نفسه ، ص٥٨٩.

إن أنحاء دمشق تتدافع أمام عينيه وتتسابق مثبتة حضورها ليس في شعره فحسب وإنما في كيانه ووجدانه ، فيتذكر مروجها الخضراء ونهر بردى الشهير ، والقصر المنيف الذي يشرف على المرج ، ولا يغفل متنزهها المعروف بالشرف الأعلى ، وأيضا جسر ابن شواس ، أما ربوتها فهي جنة تنحدر مياهها كوثر ، فسبحان من حباها بهذا الجمال . يقول[٥٥]:

فَالمَرجُ فَالنَهرُ فَالقَصرُ المُنيفُ عَلى الـ
ـقُصورِ فَالشَرَفُ الأَعلى فَبانيهِ
فَالجِسرُ جِسرُ اِبنِ شَواسٍ فَنَيرَبُها تَحلو مَعانيهِ لا تَخلو مَغانيهِ
كَأَنَّ في رَأسِ عِلّيينَ رَبوَتَها يَجري بِها كَوثَرٌ سُبحانَ مُجريهِ

إن كل موضع في دمشق يتيه عُجبا ، فلا حزوى ولا كاظمة ولا حتى وادي العقيق وبواديه يضاهيها جمالا وسحرا ، وإذا كان المتنبي قد سحره شعب بوّان في أرّجان ؛ فإن أقل شِعب دمشقي يرقى إلى شعب بوّان بكل ما له من روعة وشهرة. يقول الشاغوري [٥٦]:

تِلكَ المَرابِعُ لا حَزوى وَكاظِمَةٌ وَلا العَقيقُ بَواديهِ بِواديهِ
أَقَلُّ شِعبٍ تَراهُ في دِمَشقَ يُوا
في شِعبَ بَوّانَ وافي الفَخر وَالتيهِ

وينتقل عبر اللوحة الدمشقية ذاتها إلى وصف القصور ، فقد تمثلت له قصور دمشق مراكب تحدو بها أشرعتها في بحر من البساتين المزدهرة بثمارٍ

---

(٥٥) السابق نفسه ، ص٥٨٩.

(٥٦) ديوانه ، ص٥٩٠.

سلالتها من الجنة ، أما غصونها فتهتز طربا على أنغام ترددها طيور الهَزَارات الشجية . إنها تعيد سامعها إلى زمن الرشيد ومجالسه بما لها من وروعة ألحان (إسحق الموصلي) وشجي ناي (زُنَام) العازف الشهير. يقول[٥٧]:

إذا تَأَمَّلتَها مِن كُلِّ ناحِيَةٍ دَعَتكَ لِلعَجَبِ البادي دَواعيهِ
بِها الجَواسِقُ أَمثالَ المَراكِبِ في بَحرِ البَساتينِ تَعلوها صَواريهِ
كَأَنَّ مِشمِشَها في دَوحِهِ ثَمَرُ الـ جِنانِ تَجنيهِ مِنها كَفُّ جانيهِ
كَأَنَّما كُلُّ غُصنٍ مِنهُ ذو كَرَمٍ تَحُلُّ في الناسِ أَيدٍ مِن أَياديهِ
بِها الهَزاراتُ تَشدو في سَتائِرِ أَوْ راقٍ فَنَحنُ بِما تَأتيهِ في التيهِ
كَأَنَّ نايَ زُنامٍ في مَناقِرِها وعودُ إِسحَق تَتَلوهُ مَثانيهِ

إن الشاغوري شديد الولع بالطبيعة الدمشقية التي شكلت له مكانا أليفا ، ويكشف ديوانه عن مثول دمشق بكل ركن فيها في مخيلته ووجدانه ؛ فهو يكرر معانيه في التغني بدمشق في قصائد عدة ، مما يدل على ملازمتها له وحضورها الدائم في نفسه . يقول[٥٨]:

عَرِّج عَلى جِلَّقَ الفَيحاءِ غوطَتُها فَحَيّ جامِعَها عَنّي وَأَهليها
لَولا الخُلودُ الَّذي لَسنا نُؤَمِّلُهُ لَقُلتُ إِنَّ جِنانَ الخُلدِ تَحكيها
فَإِنَّها بَلَدٌ ناهيكَ مِن بَلَدٍ في الحُسنِ لَيسَ لَها مِثْلٌ يُضاهيها

فقد استهلّ حديثه عن دمشق (جِلَّق) بفعل الأمر (عرِّج) ، وهي إن كانت تقليدا شعريا موروثا ؛ إلا أنها تكشف عن رغبته في التيه بجمال موطنه ، بل

---

(٥٧) السابق نفسه ، ص٥٩٠.

(٥٨) ديوانه ، ص٥٩٥.

إنها دعوة للمشاركة في الاستمتاع بجماله الأخّاذ ، الذي تحاكيه جنان الخلد . ولمَ لا وهي صاحبة الحسن الذي لا يضاهى.

ويتابع الشاغوري استمتاعه بالتغني بالطبيعة الدمشقية الغنّاء ، فيحضُره ربوتها وماؤها السائغ الذي له من العذوبة والبرودة ، ما يجعلها لا تستشعر حرارة في أقسى شهور العام نيرانا . ولا تخفى التورية في قوله (كانون) و(نار) ، حيث يقصد بكانون شهر ديسمبر ببرودته ، لا موقد النار. فيقول[٥٩]:

فَماءُ كانونَ في سَلسالِ رَبوَتِها تُطْفِي بِهِ نارَ آبٍ حينَ تُحْمِيها

ولربوعها جمال خاص مع حلول الربيع ، إنه ينفخ فيها من نسائمه فتستنشقها الأزهار ناشرة أريجها الطيب العبق ، أما الطير فيستقبله طرِبا نشوان شادِيا بألحان شجية تنساب بلا توقف . يقول[٦٠]:

تِلكَ الرُبوعُ حَلَت عِندي مَعانيها مِن أَهلِها لا خَلَت مِنهُم مَغانيها
يا طيبَ أَزهارِ أَنفاسِ الرَبيعِ بِها وَالطَيرُ تُطرِبُنا أَصواتُ شَادِيها

ويسترسل الشاغوري في رسم لوحته الدمشقية فيصور حمرة ورودها وقد استمدت لونها من خدود الحسناوات الدمشقيّات ، أما الشحارير فهي تعتلي البانات الدمشقية السامقة ، وتحكي بصوتها العذب الشجي ترانيم الرهبان في

---

(٥٩) السابق نفسه ، ص٥٩٥.

(٦٠) ديوانه ، ص٥٩٥.

صوامعهم ، وطائر الهَزَار يبدو نشوان يردد ألحانا شجية وكأنها صادرة من أوتار العود . يقول الشّاغوري[٦١]:

وَالوَردُ يُبدي خُدودَ الغانِياتِ بِها وَلِلثُّغورِ ابتِسامٌ في أَقاحِيها
تَحكي الشَحاريرُ رُهبانًا صَوامِعُها الـ ـباناتُ تَتلو زبوراً في أَعَالِيها
وَللهَزارَات أَلحانٌ مَناقِرُها تُعيدُها فَهْيَ نايَاتٌ وَتُبديها
كَأَنَّ عيدانَها العِيدَانُ تُطرِبُنا منها المَثالِبُ إِذ تتلو مَثانيها

ويتابع الشاغوري وصفه لرياضها وبساتينها التي تبدو لرائيها من فيض اتساعها بحرا ترسو فيه قصورها كالمراكب ، أو يتخيلها سماءً واديها هو المجرة أما قصورها فهي النجوم . ويتيه كعادته بالطبيعة الدمشقية التي لا يدانيها مكان ، فلا وادي العقيق ولا نجد ولا حتى شعب بوّان بروعته وشهرته يبلغ ما بلغته من حسن وجمال. يقول فِتيان[٦٢]:

دِمَشق إِن جِئتَها مِن كُلِّ ناحِيَةٍ عَلى اليَفاعِ الَّذي تَحوي حَواشيها
حَكَت بَساتينُها بَحراً جَواسِقُها فيهِ المَراكِبُ مُلقاةً مَراسيها
أَو السَماءَ وَواديها المَجرةُ وَالـ ـقُصورُ فيهِ نُجومٌ سارَ ساريها
تِلكَ المَرابِعُ لا وادي العَقيقِ وَلا نَجدٌ وَلا شِعبُ بَوّانٍ يُدَانِيها

إن اللوحة التي رسمها للجمال الدمشقي لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها في القصيدة السابقة ، فحديثه عن دمشق حديث العاشق المتيم ، إنها بالنسبة له وطن وانتماء ، لا مجرد نظم وقريض وبراعة شاعر وصّاف . إنها تمثل لقلبه

(٦١) السابق نفسه ، ص٥٩٦.
(٦٢) السابق نفسه ، ص٥٩٧.

موطن اللهو والاستمتاع والسكن والسكينة ، فربوعها تهديه النسائم الباردة العليلة ، ومن مائها يرتشف خمرا تبعث فيه النشوة والغبطة ؛ لذا فهو يرسل تحيته إلى كل أرجائها، فالمرء دائما شغوف بالمكان الذي تستقر فيه نفسه ويُسر خاطره . يقول فِتيان[٦٣]:

سَلامٌ عَلى أَكنافِ جِلَّقَ إِنَّها لأَوطارِ قَلبي مَسرَحٌ وَمَقيلُ
رُبوعُ الهَوى أَمّا الهَواءُ فَشَمأَلٌ بِهِنَّ وَأَمّا الماءُ فَهوَ شَمولُ

ويبدو أن شدة ولع الشاغوري بدمشق يجعله يشعر بالسعادة في التصريح بأنحائها المختلفة ، فيذكر حي (جَوْبَر) ويتغنى بنسماته العليلة العطرة ، وتستوقفه رياضها وقد بدت بساطا تزينه دوحات وزهور. ويقول[٦٤]:

يا حَبَّذا نَفَحاتُ جَوْبَرَ بُكرَةً ما هُنَّ إِلا المِسكُ وَالكافورُ
وَالزَّهرُ مَنظومٌ عَلى دَوحاتِهِ وَعَلى بِساطِ رِياضِهِ مَنثورُ

وعلى الرغم من ولعه الشديد بدمشق وكلفه بكل أنحائها ؛ فإنه كثيرا ما يشكو غربته بين أهلها ، وهي غربة من يعتز بذاته ويرى عدم تقديرها واعتلائها المنزلة التي تستحقها . يقول[٦٥]:

أَراني غَريباً في دِمَشقَ وَأَهلُها بَصيرونَ بي لَكِن عَمُوا عَن مَحاسِني
فَيا ضَيعَتي فيهِم وَفَضلِيَ ظاهِرٌ كَأَنّي لَدَيهِم مُصحَفٌ عِندَ باطِني

---

(٦٣) ديوانه ، ص٣٣٥.
(٦٤) السابق نفسه ، ص١٦٨.

(٦٥) ديوانه ، ص٥١٨.

وتتردد في شعره نغمة الشكوى وعدم حصوله في دمشق على ما تصبو نفسه إليه ، ويسوق ذلك في لهجة ساخرة خفيفة الظل ، لعله يعبر بها عن حاله بينهم فيقول(٦٦):

أَهلُ دِمَشقٍ لَهُمُ جامِعٌ لَيسَ عَلى ما فيهِ تَعويلُ
بِالجامِعِ الصَّحنُ وَلَكِنَّهُ مِن كُلِّ ما يُؤكَلُ مَغسولُ
وَفيهِ أَشجارٌ وَلَكِنَّها لَم يُجنَ مِنها الدَهرَ مَأكولُ

ويكشف ديوانه عن اعتزازه الشديد بإقامته بقرية الزبداني ، وله فيها أشعار لطيفة ، فهي "أرض فيحاء جميلة المنظر تتراكم عليها الثلوج في فصل الشتاء ، وتنبت أنواع الأزهار في زمن الربيع"(٦٧). يقول الشاغوري(٦٨):

يا جَنَّةَ الزَّبَداني أَنتِ مُسفِرَةٌ عَن وَجهِ حُسنٍ إِذا وَجهُ الزَمانِ كَلَح
فَالثَلجُ قُطنٌ عَلَيكِ السُحبُ تَحلُجُهُ وَالجَوُّ نَدّافُهُ وَالقَوسُ قَوسُ قُزَح
مَتى يَجُل فيكِ طَرفُ الطَرفِ مِن مَرَحٍ قَرَيتِهِ لُمَحاً تَأتي بِحُسنِ مُلَح
تَلقى النَواظِرُ مِن رَوضٍ نَواضِرَ في قُلوبِنا فَرَجاً مِن هَمِّها وَفَرَح

فالشاعر يشخص الزبداني ويخاطبها مخاطبة الأحياء ليصور منزلتها في وجدانه ، فنظرة إلى رياضها تحيل عبوس حياته فرحا وسعادة ، وتفرّج هموم قلبه وتبعث على السرور. ويصور كلفه بحسنها في فصل الشتاء ، حيث تتساقط عليها الثلوج فتبدو كرقائق قطنية طرقها قوس قزح وحلجتها السحب وأرسلتها

(٦٦) السابق نفسه ، ص٣٦٢.
(٦٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، مج/٤ ، ص٢٤.
(٦٨) ديوانه ، ص٩٤.

أجواء الشتاء. وأينما طاف البصر في أرجائها قابله حسنها الذي يبدد الهموم ويبعث الفرح.

ويأخذه الحنين إلى الزبداني ولا يرضى بها بدلا ، فلا عُسْفان ولا الغُوَير ولا رُبا نجد أو حَزوى أو العَلَمان ، كلها لا تضاهيها ، ولعل في حشده هذه المواضع متتالية في موازنة بينها وبين الزبداني ، ما يدل على شغفه بقريته ورؤيتها مختلفة عما سواها ، ويجسد البيت الثاني تمكّن الزبداني في وجدانه حيث يذكر (عين صُدَّى) بمائها الرائق السلسال الذي يحتثيه الشاعر خمرا سائغة ، أما نسيمها العليل الريحاني الأريج فهو لجسده الروح . يقول الشاغوري[٦٩]:

قِف بِالمَطِيِّ بِساحَةِ الزَبَداني لا تَعسِفَنَّ بِها إِلى عُسفانِ
كَم ثَمَّ لِلرُوّادِ وَالوُرّادِ مِن صُدَّى إِذا انتَجَعوا وَمِن سَعْدانِ
تِلكَ المَرابِعُ لا الغُوَيرُ وَلا رُبا نَجدٍ وَلا حَزْوى وَلا العَلَمانِ
أَمواهُها راحي وَبَردُ نَسيمِها رَوحي وَنَبتُ رِياضِها رَيحاني

ويشكو الشاغوري غربته بعيدا عن الزبداني ، فقد أرّقه الحنين وحرمه النوم، فمن أين يتأتى النوم للمشتاق . يقول[٧٠]:

قِفا خَبِّراني أَيُّها الرَّجُلانِ عَنِ النَومِ إِنَّ الهَجرَ عَنهُ نَهاني
وَكَيفَ يَكونُ النَومُ أَم كَيفَ طَعمُهُ صِفا النَومَ لي إِن كُنتُما تَصِفانِ
فَإِنّي لَمُشتاقٌ إِلى النَومِ فاعلَما وَلا عَهدَ لي بالنَّومِ مُنذُ زَمانِ

---

(٦٩) ديوانه ، ص٥٤٩ ، ٥٥٠.
(٧٠) السابق نفسه ، ص٥٢٧.

ويجرفه الحنين نحو عيون الماء التي اشتهرت بها الزبداني ، فهي تجري مندفعة كخيل في حلبة سباق ، أُطلق لها العنان فتدافعت بلا هوادة ، ويرى شفاءه في قليل من مائها الزلال . يقول(٧١):

وَإِنّي لَظَمآنٌ إِلى بَردِ أَعيُنٍ جَرَت بِحَواشي بُقعَةِ الزَبَداني
عُيونٌ جَرَت بِالسَفحِ حَتّى تَدافَعَت تَدافُعَ خَيلٍ أُرسِلَت لِرِهانِ
فَتِلكَ مِياهٌ لَو شَرِبتُ زُلالَها وَبي كُلُّ داءٍ قاتِلٍ لَشَفاني

ويتذكر الشاعر حياته الهنيئة في الزبداني ، ويوجه حديثه إلى جبلين متقابلين ، طالما استظل بظلهما ، ويغبطهما الشاعر على عدم اغترابهما ، ويوازن بين حاله واستقرارهما مصورا معاناته في مكابدة نيران الاغتراب ونأي الديار . يقول(٧٢):

أَلا حَبَّذا عَيشٌ هَنيءٌ قَطَعتُهُ بِظِلّكُما يا أَيُّها الجَبَلانِ
تَناوَحتُما كَالفَرقَدَينِ فَأَشرَفَت بِسَفحَيكُما لِلناسِ خَيرُ مَغانِ
عُيونُكُما قَرَّت وَعَيني سَخينَةٌ وَهَل يَستَوي قاصي الدِيارِ وَداني
أَهَذا وَما كابَدتُما غُربَةَ النَوى فَكَيفَ الغَريبُ الدارِ مُنذُ زَمانِ

ولا يُكثر الشاعر من الحديث عن الشاغور مثلما الحال في دمشق والزبداني، وإن كنا نراه يُشيد بالحياة الكريمة بين أهلها ، وهو يمدحهم إعجابا بشجاعتهم وعزتهم لا طلبا لرفدهم. يقول في مخاطبا محبوبته التي هجرته (٧٣):

أَنتِ نَغَّصتِ بِالقَطيعَةِ عَيشي أَيَّ عَيشٍ لِعاشِقٍ مَهجورِ

---

(٧١) **ديوانه ، ص٥٢٨.**
(٧٢) **السابق نفسه ، ص٥٢٨.**
(٧٣) **السابق نفسه ، ص١٧١.**

أَنتِ أَذلَلتِني وَكُنتُ عَزيزًا في حِمىً مِن مَحَلَّةِ الشاغورِ
بَينَ قَومٍ لا يَرهَبونَ مِنَ المَو تِ وَنارُ الهَيجاءِ ذاتُ سَعيرِ
أَنا في مَدحِهِم مُجيدٌ بِلا رِفـ دٍ وَلَكِن لِوِدِّهِم في الضَميرِ

إن دراسة شعر فتيان الشاغوري تكشف عن اعتزازه بموطنه وشديد انتائمة لدمشق والزبداني ، وتفضيلهما على سائر البلدان ولكنه إن جاز القول انتماء ناقص. فهو انتماء للأرض دون ساكنيها ، فعلى الرغم من كون دمشق مكانا أثيرا في وجدان الشاعر ؛ إلا أنه ينعى على أهلها عدم تقديرهم لمنزلته ومكانته ، لذا يمكننا القول إن عشقه لدمشق إنما هو عشق للوطن طبيعة وجمالا وحلما بالاحتواء، وإن كان لم يلقَ في رحابها ما كان يؤمله من تقدير. ولعل إشادته بالطبيعية الدمشقية التي جعلت منها جنة الدنيا في معرض المديح ما يؤيد ذلك ، فالممدوح برفده الفياض قد أنساه دمشق ، إلا أن حنينه لطبيعتها يجعله يتذكرها ويشيد بحسنها، وكأنه إن استطاع نسيان أهلها ، فإنه يعجز عن تجاهل ولعه بطبيعتها وأرضها ، وربما حلمه بالحياة الهنيئة في ظلها. يقول فتيان[٧٤]:

أَياديهِ أَنسَتني دِمَشقَ وَأَهلَها وَإِن أَشبَهَت في حُسنِها جَنَّةَ الخُلدِ

المكان والممدوح:

(٧٤) ديوانه ، ص١٣٦.

لقد غلب المديح على شعر الشاغوري ؛ ذلك لأنه قد اتخذه وسيلة للطلب والاستجداء ، نظرا لظروف فقره واحتياجه[٧٥]. ويؤكد ذلك شعره المدحي . فمن أمثلته قوله مخاطبا الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي[٧٦]:

إِلَيكَ صَلاحَ الدينِ سارَت مَدائِحي وَمِثْلُكَ مَن تَزكو لَدَيهِ الفَواضِلُ

أَجِرنِيَ مِن فَقرٍ مُلِحٍّ وَإِن أَقُل أَجِرني فَكُلٌّ مِنكَ لا شَكَّ حاصِلُ

وقد شكل المكان عنصرا رئيسا في نسيج شعره المدحيّ ، وبدا حضور ألفاظ المكان العام مثل الأرض والجبل والبحر والنهر بكثافة في شعره ، حيث اتكأ عليها في الإشادة بالممدوح وتصوير سمو مكانته وتفرد خصاله.

ويشغل حديث الأرض مساحة بارزة في شعر المديح عند الشاغوري ، حيث كثر ذكر الأرض مرتبطة بالممدوح ؛ فجود الممدوح ، وعطاؤه الفياض قد غمر الأرض فلم يترك بها سائلا أو محتاجا ، والاستثناء الوحيد هو الشاعر ، وكأنه يريد معاتبة الممدوح الذي يفيض عطاءً ، ولكن لا يصيب الشاعر منه شيئا . يقول الشاغوري[٧٧]:

وَأَنتَ الَّذي قَد طَبَّقَ الأَرضَ جودُهُ

فَلَيسَ بِها غَيري مِنَ الناسِ مُعدِمُ

ومنه أيضا قوله[٧٨]:

مَتى جادَت أَنامِلُهُ بِأَرضٍ فَلا سَغَبٌ هُناكَ وَلا أُوامُ

---

(٧٥)السابق نفسه ، ص٩.
(٧٦) السابق نفسه ، ص٣٢١.
(٧٧) ديوانه ، ص ٤٠٦.
(٧٨) السابق نفسه ، ص٣٩٨.

ونلاحظ مجيء كلمة الأرض نكرة ، ومن ثم شيوع جود الممدوح وكرمه لتصيب منه شتى بقاع الأرض دون تحديد أو استثناء.

ويتكرر ذكر الأرض مسندا إليها لفظة (ملوك) ، في موازنة بين الممدوح وسائر الملوك ، حيث يثبت لممدوحه التفوق فيما نسبه إليه . فمن ذلك قوله[٧٩]:

تَظَلُّ مُلوكُ الأَرضِ خاضِعَةً لَهُ فَكُــلُّ عَظيمٍ عِنــدَهُ مُتَضائِلُ

فبدا ممدوحه جبّارا مهابا ، وبدا كل عظيم في الأرض أمامه ضعيفا متصاغرا .

وقوله أيضا مخاطبا ممدوحه [٨٠]:

شَأَوتَ مُلوكَ الأَرضِ شَرقاً وَمَغرِبًا فَما لَكَ في كُلِّ المُلوكِ عَديلُ

حيث صوّر تفوق ممدوحه وسبقه لسائر ملوك الأرض في كل موضع مشرقا ومغربا ، فليس هناك من يعادله مجدا وجودا وندى.

ويسبغ الشاغوري على ممدوحه هالة من التقديس والتعظيم ، فهو إمام لشتى ملوك الأرض وهم له مأمومون . يقول في مدح الملك الأشرف مظفر الدين شاه[٨١]:

مُلوكُ الأَرضِ مَأمومونَ كُلٌّ مُصَلٍّ خَلفَهُ وَهُوَ الإمامُ

ونراه يلح على عبارة (ملوك الأرض) ويكررها عدة مرات في القصيدة الواحدة ، مؤكدا من خلالها على تفرد الممدوح وسموه على ملوك الأرض قاطبة

([٧٩])السابق نفسه ، ص٣١٧.

([٨٠]) ديوانه ، ص٣٣٨.
([٨١]) السابق نفسه ، ص٣٩٧.

، فخصاله أولى بالنظم والقصيد من وقوف بأطلال أو غزل ولهو ، إن خصاله التي سما بها على الجميع أولى بالنظم والتغني والإنشاد. يقول الشاغوري[٨٢]:

دَعِ النَسيبَ وَقَولَ اللَّهوِ وَالغَزَلِ وَلا تُعَرِّج عَلى رَبعٍ وَلا طَلَلِ
وَارفَع عَقيرَةَ شادٍ وَسطَ أَندِيَةٍ وَصَوتَ حادٍ بِبيدٍ مُطرِبِ الإِبِلِ
بِمَدحِ خَيرِ مُلوكِ الأَرضِ قاطِبَةً قُل ذاكَ في كُلِّ إِقليمٍ وَلا تُبَلِ

ثم يقول في القصيدة ذاتها[٨٣]:

وَأَصبَحَتْ بِعَميمِ العَدلِ دَولَتُهُ غَرّاءَ باسِقَةً تَسمو عَلى الدُّوَلِ
يَسيرُ فيها أَبو بَكرٍ بِدينِ أَبي بَكرٍ وَعَدلِ أَبي حَفصٍ وَبَأسِ عَلي
مِنهُ رَأَينا مُلوكَ الأَرضِ في مَلِكٍ لا بَل رَأَينا عِبادَ اللهِ في رَجُلِ

فقد جمع لممدوحه الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ، تدين الصديق ، وعدل الفاروق ، ورباطة جأش الإمام عليّ رضوان الله عنهم جميعا ثم يكرر مؤكدا على فصاحة الممدوح وقوة بيانه قائلا[٨٤]:

يَرُدُّ رُسْلَ مُلوكِ الأَرضِ مُدهَشَةً فَما يُبَرهِنُ قَولاً أَفصَحُ الرُّسُلِ

وقد يسند الشاغوري كلمة (ملك) مفردة إلى (الأرض) ، موجّها الخطاب إلى الممدوح ، فيشعرنا بأن الأرض جميعها قد انصاعت لممدوحه فيما يَحكم ويُطاع ، ويستقر في ذروة علاها . يقول[٨٥]:

فَيا مَلِكَ الأَرضِ لا زِلتَ في سُعودٍ تَوَقَّلُ أَعلا رُباها

---

(٨٢) السابق نفسه ، ص٣٢١ ، ٣٢٢.
(٨٣) السابق نفسه ، ص٣٢٢.
(٨٤) ديوانه ، ص٣٢٣.
(٨٥) السابق نفسه ، ص٥٦٣.

ويوظف التركيب ذاته في وصفه لفوّارة شيّدها الصاحب صفيّ الدين عبد الله بن عليّ ، حيث يشيد بهمة ممدوحه في التشييد والعمران فيقول(٨٦):

وَقَد ضَجَّ بَطنُ الأَرضِ مِن ثِقلِ وَطئِها

كَما أَنَّ أَعلاها بِهِ الجَوُّ قَد غَصّا

فبطن الأرض في البيت يعني الموضع الذي احتوى مياه النافورة بثقلها وشدة وطأتها ، ولولا همّة الممدوح ما كانت تتحلى بهذا الوصف.

وتأتي كلمة (الأرض) أيضا بين ثنائية ضدية للدلالة على شمول عدل الممدوح شتى بقاع مصر؛ إذ لم يخلُ من عدله سهل في أرضها ولا حزْن . يقول(٨٧):

وَطَبَّقَ سَهلَ الأَرضِ وَالحزْنِ عَدلُهُ

بِمِصرَ فَقالوا لَم يَكُن قَبــلُ عـادِلُ

وقد تأتي كلمة (الأرض) في شعره معرفة دون إسناد ، قاصدا بها الأرض دون تحديد أو تخصيص ، كما في مدحه لبني أيوب حيث شمل نداهم الأرض حتى أنه كاد يغرقها من شدته وغزارته . يقول(٨٨):

يَكادُ نَداهُم يُغرِقُ الأَرضَ طَلُّهُ وَيُحرِقُها مِن زَندِ بَأسِهِمُ سِقطُ

ومنه أيضا قوله(٨٩):

يَسيرُ بِجَيشٍ يُرجِفُ الأَرضَ بَأسُهُ وَتَبدو لَها في كُلِّ قُطرٍ زَلازِلُ

---

(٨٦) السابق نفسه ، ص٢٤٦.
(٨٧) السابق نفسه ، ص٣٢٠.
(٨٨) ديوانه ، ص٢٥٨.
(٨٩) السابق نفسه ، ص٣١٧.

إذ جعل للممدوح جيشا مغوارا شديد الأهوال ، ترتجف منه الأرض فلا ينجو من زلزالها قُطر.

ويكثر في شعر الشاغوري مجيء كلمة (أرض) بألوان متنوعة ؛ فقد تأتي دون تعريف أو تحديد ، في معرض المديح ، فأي أرض بأي بلدة متى فاضت عليها كف ممدوحه ، فالخير يعم أرجاءها ويفيض فلا جوع ولا ظمأ . يقول الشاغوري[٩٠]:

مَتى جادَت أَنامِلُهُ بِأَرضٍ فَلا سَغَبٌ هُناكَ وَلا أُوامُ

ويلحّ على المعنى ذاته في مدحه للملك المعظم شرف الدين عيسى بن أبي بكر بن أيوب ، فجود أياديه يجعل الأرض التي يحلها عطاءً وسخاءً ، ويمنع عنها الجدب والمحول . فيقول[٩١]:

وَلا الغَيثُ مُنهَلَّ العَزالي مُجَلجِلاً

وَقَد سُحِبَت لِلسُحبِ في الأَرضِ أَذيالُ

بِأَغزَرَ مِن يُمناهُ تَنهَلُّ بِالنَدى فَلَيسَ بِأَرضٍ حَلَّها الدَهر إِمحالُ

وقد تأتي لفظة (الأرض) مخصصة بوصف يشيد بسمو الممدوح وشريف قدره ، مثلما جاء في مدحه لرسول الله ﷺ ، حيث صوّر الأرض عند قبره الشريف وقد نثرت عليها الأحجار الكريمة من اللؤلؤ والزبرجد يقول[٩٢]:

وَمَرَّغتُ خَدّي عِندَ قَبرِكَ ضارِعاً بِأَرضٍ حَصاها لُؤلُؤٌ وَزَبَرجَدُ

---

(٩٠) **السابق نفسه ، ص٣٩٨.**
(٩١) **السابق نفسه ، ص٣٣١.**
(٩٢) **ديوانه ، ص١٠٩.**

و يسند الشاغوري كلمة (أرض) إلى مكان بعينه يوظفه في شعره ، للدلالة على عظم مكانة ممدوحه في نفسه ، فمن ذلك قوله في مدح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب[٩٣]:

أَسيرُ بِعَزمي لا بِجِسمي فَها أَنا الـ ـمُقيمُ بِأَرضِ الشامِ وَالعَزمُ راحِلُ

فالشاعر لا يزال يمكث في أرض الشام جسدا لا روحا ؛ فروحه قد انتقلت مع ممدوحه إلى مصر حيث يهنئه بهزيمة الروم في دمياط بمصر.

ويقول كذلك في مدح الصاحب الوزير صفيّ الدين عبد الله بن عليّ[٩٤]:

أَنتَ طَيَّبتَ أَرضَ جيرانِ جيرو نَ فَفاحَت بَينَ الملا بِالملابِ

فقد تطيبت أرض دمشق بحلول ممدوحه ، وانتشرت عبر أرضها نسائمه العطرة وفاضت على الأرض قاطبة.

وفتيان الشاغوري يجوب الأرض مادحا بشعره من يراه أهلا لأن ينظم شعره من أجله ، ويرد على من يعذُله في كثرة ترحاله بأن السعي هو طريق المجد والعزة، ويضرب مثلا بأبناء شادي وهم الأيوبيون الذين ملكوا الأرض بجهادهم ومثابرتهم وأحكموا الزمام عليها ، محددا حدود ملكهم من قوص المصرية وحتى الهند . يقول[٩٥]:

وَلَو لَم يَجُب أَبنـــاءُ شادي مَهامِهًا

لَما مَلَكوا مِن أَرضِ قوصٍ إِلى الهِندِ

---

(٩٣) **السابق نفسه ، ص٣١٧.**
(٩٤) **السابق نفسه ، ص٤٤.**
(٩٥) **السابق نفسه ، ص١٣٤.**

ويرد لفظ (البحر) بكثرة في شعر المديح عند الشاغوري ، حيث توظيفه في خلع صفات الجود والكرم والعطاء على الممدوح ، وفمن ذلك قوله[٩٦]:

هُوَ الدَهرُ يُرجى كُلَّ وَقتٍ وَيُتَّقى هُوَ البَحرُ جوداً ما يُوافى لَهُ شَطُّ

فعطاء ممدوحه بحر ولكن بلا شطآن ؛ إذ لاحدود لذلك السخاء .

وإن كان في البحر لون من الملوحة تعيق الاستمتاع بمائه ؛ فإن الممدوح وإن كان يشبهه في عطائه الجم فهو يتجاوز ما يشوبه ، إنه عطاء بلا شوائب. يقول الشاغوري[٩٧]:

هُوَ البَحرُ لَولا البَحرُ فيهِ مُلوحَةٌ هَوَ اللَيثُ لَولا أَنَّ في اللَيثِ تَعبيسا

ومناقب الممدوح لا تُحصى ، فهي كرمال البحر كثرة حتى أنه يستعصى على البليغ حصرها . يقول[٩٨]:

مَناقِبُهُ لَم يُحصِها ذو بَلاغَةٍ وَهَل أَحَدٌ يُحصي مِنَ البَحرِ رَملَهُ

وقد يتوجه الشاغوري إلى الممدوح مناديا إياه بالبحر الذي يفيض جودا وكرما ، وهذا النداء يبعث نوعا من التنبيه والتعظيم للممدوح ، ولعله استطرد في وصف ذلك (البحر) ، ليتمكن من عقد مقارنة بينه وبين ممدوحه ليثبت للممدوح الغلبة والتفوق . يقول[٩٩]:

---

(٩٦) ديوانه ، ص٢٥٦.
(٩٧) السابق نفسه ، ص٢٢٥.
(٩٨) السابق نفسه ، ص٣٦٥.
(٩٩) السابق نفسه ، ص١٠٢.

يا أَيُّها البَحرُ الخِضَمُّ نَدىً فَفي أَدنى نَداهُ يَغرَقُ السبّاحُ
بَحرٌ بِهِ تَجري السَفينُ لَنا بِمَحـ ـمودِ الرِياحِ فَيَفرَحُ المَلّاحُ
بَحرٌ طَمى بِنوالِهِ آذِيُّهُ فَالنَيلُ عِندَ نَوالِهِ ضحضاحُ

فعلى الرغم من أن المعنى يوحي بالمطابقة بين ممدوحه والبحر جودا وكرما وذخرا ؛ إلا أنّ الشاغوري يُجري مقارنة بين البحر والممدوح ؛ فقليل من ندى الممدوح يكفي للحياة الرغدة ، وعطاؤه آمن فلا إعصار مدمر ولا رياح عاتية تهلك من يؤمل رفده . ويمتد بالمقارنة إلى النيل أيضا ليؤكد لممدوحه سعة العطاء ، فالنيل إلى جواره ضحل لا عمق فيه .

ويتكرر في شعره مخاطبة الممدوح بالبحر الجواد العطّاء الذي عمّ خيره كل بقاع الدنيا حيث يقول في مدح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب(١٠٠):

فَيا أَيُّها البَحرُ الَّذي عَمَّ جودُهُ وَقامَ بِما لَم تَستَطِعهُ الأَوائِلُ

وهو في القصيدة نفسها يوظف لفظ الأرض في ثنائية ضدية بين سهل الأرض وحزنها ، ليؤكد شيوع عدل الملك الناصر صلاح الدين ؛ فبحلوله مصر قد حلّ العدل ولم يخلُ منه موضعا سهلا أو حزنا. يقول(١٠١):

وَطَبَّقَ سَهلَ الأَرضِ وَالحزنِ عَدلُهُ بِمِصرَ فَقالوا لَم يَكُن قَبلُ عادِلُ

ويستعير الشاغوري من البحر صفات الكثرة والغزارة والزخر ، لينسب إلى الممدوح فيضا من العلوم والمعارف ، يجعل صدر ممدوحه مكانا حاويا لها ، فهي ثابتة لا تفارقه . يقول(١٠٢):

---

(١٠٠) **ديوانه ، ص٣٢٠.**
(١٠١) **السابق نفسه ، ص٣٢٠.**

فَفي صَدرِهِ بَحرٌ مِنَ العِلمِ زاخِر وَخاطِرُهُ إِذ يَنظِمُ الشِعرَ لآلُ

ويتوسل الشاغوري بلفظ (البحر) وما له من دلالة ، في تصوير شجاعة الناصر صلاح الدين وبسالته في تحرير بيت المقدس ، إذ يجعل جيوش الصليبيين بحرا يفيض بأمواج متدافعة مما حشده الأعداء من أسلحة قتال ، وكان لصلاح الدين وجنوده من التفوق والبراعة الحربية ما يؤهل لدحرهم وإبادتهم ، وبذلك استطاع الشاغوري عبر هذه الصورة المؤسسة على صفة البحر أن يثبت لممدوحه الشجاعة والظفر. يقول[١٠٣]:

جاشَت جُيوشُ الشِركِ يَومَ لَقيتَهُم يَتَدامَرونَ عَلى مُتونِ الضُّمَّرِ

وَكَأَنَّهُم بَحرٌ تَدافَعَ مَوجُهُ بظُبًا وَزَغْفٍ مُحْكَمٍ وَسَنَوَّرِ

ولا يكتفى بجعل ممدوحه بحرا في الجود والعطاء وسعة العلم ، ولكنه بحر يفيض بمكارم الأخلاق والشيم . يقول فِتيان[١٠٤]:

بَحرٌ وَلَكِن بِالمَكارِمِ مُفعَمٌ حَبْرٌ لَدَيهِ كُلُّ حَبْرٍ مُفْحَمُ

ويتوسل بأحوال البحر استقرارا واضطرابا في تصوير ممدوحه في حالي الرضا والغضب ، فهو بحر يهب الجوهر الثمين للمذعنين لسطوته والمقدرين لمنزلته ومكانته ، أما على عدوه فهو طوفان يغرق بلا رحمة أو هوادة . يقول في مدح الملك الأشرف[١٠٥]:

بَحرٌ يَفيضُ عَلى العافينَ جَوهَرُهُ ثَمينُ وَهوَ عَلى العادينَ طوفانُ

---

(١٠٢) **السابق نفسه ، ص٣٣٠.**

(١٠٣) **ديوانه ، ص١٤٣ ، ١٤٤.**
(١٠٤) **السابق نفسه ، ص٤٥٣.**
(١٠٥) **السابق نفسه ، ص٤٧٦.**

ومن ألفاظ المكان العام في شعره أيضا لفظة (الجبل) ، وقد استطاع الشاغوري أن يوظفها توظيفا جيدا في المديح ، حيث يسند من خلالها صفات الرسوخ والشموخ والاتزان إلى الممدوح ، فمن أمثلة ذلك قوله[١٠٦]:

وَتُرعِدُ الجِبالُ مِن حَملَتِهِ وَتَقشَعِرُّ الأَرضُ خَوفاً أَن تُدَكّْ

فالممدوح قوي شجاع له يد باطشة بعدوه ، وغضبته ترتعد لها الجبال رعبا، وترجف منها الأرض فزعا. ونلاحظ أنه قد جمع بين الجبال والأرض للدلالة على رهبة ممدوحه وهيبته.

ويجمع بين لفظتي (البحر) و(الجبل) في مدائحه ، ويوظفهما بما يتناسب مع مكانة الممدوح وما يُسند إليه من أعمال ، فعندما أراد مدح قاضي القضاة محيي الدين أبي المعالي محمد بن عليّ القرشيّ ؛ أشاد بصفتين لابد من توفرهما فيمن يقوم بأعمال القضاء ؛ ألا وهما فيض العلم والصبر والحلم ، فجعل للممدوح علما يفوق البحار اتساعا وزخرا ، كما جعل حلمه يرتقي على الجبال رسوخا واتزانا . يقول فِتيان[١٠٧]:

أَغزَرُ مِن بَحرٍ خِضَمٍّ عِلمُهُ وَحِلمُهُ أَرزَنُ مِن كُلِّ جَبَلْ

ويكرر المعنى ذاته ولكن بصيغة الجمع لكل من لفظتي البحر والجبل ، وذلك في مدحه للفقيه ضياء الدين الشهرزوريّ ، ولعل ذلك مناسبا ؛ إذ يمتد

([١٠٦]) السابق نفسه ، ص٢٩٨.

([١٠٧]) ديوانه ، ص٣٧١.

بالمديح إلى عائلة الشهرزوري ، مشيدا بما لهم من سعة علم ورحابة صدر. يقول[١٠٨]:

أَنتُم جِبالُ حُلومٍ فَهْيَ راسِيَةٌ أَنتُم بِحارُ عُلومٍ وَهْيَ زُخّارُ

ويحشد الشاغوري ألفاظ المكان العام ، متوسلا بها في تصوير سخاء ممدوحه الذي يستحي البحر من رؤية جوده وسخائه فيقول[١٠٩]:

لَو زادَ البَحرُ فَغَطّى السَّهـ ـلَ مِنَ الأَرضين مَعَ الجَبَلِ
لَثَناهُ جودُ أَنامِلِهِ لا يَرفَعُ رَأساً مِن خَجَلِ

وكل أنملة من أصابع ممدوحه الخمس ، ماهي إلا نهر يفيض بجوده وكرمه، ويجسد الصورة بالجمع بين خمسة أنهار شهيرة هي النيل بمصر وسيحون وجيحون في بلاد ما وراء النهر ، ودجلة والفرات في العراق ، وهو ما يبرز المعنى الذي أراده . يقول[١١٠]:

تَنهَلُّ يُمناهُ بِجَدواهُ فَخَمـ ـسُ بنانِهِ لِلخَلقِ خَمسَةُ أَنهُرِ
كَالنيلِ في مِصرٍ وَسيحونٍ وَجَيـ حونٍ وَدِجلَةَ وَالفُراتِ الأَكبَرِ

ويتوسل الشاغوري بالمكان في المديح ، فيصور البلد الذي يحل فيه الممدوح وهو يتيه تفاخرا على ما سواه من أماكن ، فمن ذلك تصويره دمشق وقد ازدادت حسنا وبهاء وفضلا بحلول ممدوحه الملك المعظم شرف الدين عيسى

---

(١٠٨) السابق نفسه ، ص١٩٤.
(١٠٩) السابق نفسه ، ص٣٢٨.
(١١٠) ديوانه ، ص١٤٠.

الأيوبي ، فغدت تتيه في تكبر وصلف ، وتزدهي بما أفاضه الملك على أهلها من فضل ونعمة. يقول[١١١]:

دِمشقُ هِيَ الفِردَوسُ وَالمِسكُ تُربُها وَحَصباؤُها الياقوتُ وَالماءُ جِريالُ
وَمِن شَرَفِ الدينِ المُعَظَّمِ أَصبَحَت عَلى المُدْنِ في وَشيِ التَبَجُّحِ تَختالُ
لَقَد خَصَّها مُذ حَلَّ فيها وَعَمَّها جَمالٌ وَإِجمالٌ وَفَضلٌ وَإِفضالُ
أَلا أَيُّها المَلْكُ المُعَظَّمُ نِعمَةٌ بِجِلَّقَ حَلَّت فَاستَقامَت بِها الحالُ

وقد يضفي على كل من المكان والممدوح صفات القدسية ، مستغلا كون اسم ممدوحه محمدا ، ممتدا بدمشق ليجعلها ترحب بممدوحه ترحاب يثرب برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلك يحق لها العجب والتيه والزهو . يقول فِتيان في مدح الملك الكامل ناصر الدنيا والدين أبي المعالي محمد بن أبي بكر[١١٢]:

بَجَحَت دِمَشقُ عَلى البِلادِ مُنيفَةً بِمُحَمَّدٍ تَزهو كَأَحسَن ما زَها
كمُحمَّدٍ إذ جاءَ يَثرِبَ قادِماً وَمُهاجِراً وَمُنَوّلاً وَمُنَوَّها

وقد يبكي المكان شوقا وهياما لرحيل الممدوح ، فها هي دمشق قد تغير لونها بعد رحيل الملك الأشرف ، فلم يعد لوردها بريق ، واختفي ابتسام نورها في رياضه ، ولم تعد تطيب فيها المدام ، وليس هذا بمستغرب فقد فارقها الملك الأشرف بجوده وكرمه . يقول الشاغوري[١١٣]:

حَبَّذا جَلَّقُ إذ كانَ بِها الـ مَلِكُ الأَشرَفُ مِن قَبلُ أَقاما

---

(١١١) السابق نفسه ، ص٣٣٠.
(١١٢) السابق نفسه ، ص٥٥٤.

(١١٣) ديوانه ، ص٤٠٠.

كانَتِ الجَنَّةَ لَمّا حَسُنَت بِسَناهُ مُستَقَراً وَمَقاما
فَهْيَ مُذ وَدَّعَها باكِيَةٌ تَشتَكي شَوقاً وَتَوقاً وَغَراما
لَم تَطِب وَرداً وَلا وِرداً وَلا نَورُها راقَ وَلا رَقَّت مُداما
وَبِها نَورُ الأَقاحي لَم يَكُن مُبدِياً في أَوجُهِ الرَوضِ اِبتِساما
فارَقَت أَسخى السَلاطين يَدًا وَنَداماهُ وَهُمْ خَيرُ نَدامى

وتطير الشام طربا وسعادة متى حلّها الأمير سَراسُنْقُر ، ويعتريها الضعف والخزى إذا ما فارقها . يقول[١١٤]:

يُسعَدُ الشامُ مَتى حَلَّ بِهِ وَيُعاني إِن نَأى هَوناً وَوَهنا

وقد عُني الشاغوري بوصف المكان المرتبط بالممدوح من قصور ورياض وبساتين وغيرها ، فهو يهنئ الملك الأشرف ببناء قصر منيف واصفا له بقوله[١١٥]:

هُنِّئت بِالجَوسَقِ العالي الَّذي عَجَزَت عَن وَصفِهِ فُصحاءُ العُجمِ وَالعَرَبِ
كَالقَصرِ في الجَنَّةِ الفَيحاءِ يَحسُدُهُ إيوان كِسرى عَلى ما فيهِ مِن نُخَبِ
يَشُقُّهُ نَهَرٌ ناهيكَ مِن نَهَرٍ كَأَنَّهُ الكَوثَرُ المُعطاهُ خَير نَبي
أَبدى المُهَندِسُ خَطَّي الاستواءِ بِهِ فَالماءُ يَركُضُ بِالتَقريبِ وَالخَبَبِ
كَأَنَّما قَصرُهُ في دَسْتِهِ مَلِكٌ كُلُّ القُصورِ لَدَيهِ لائِمُ العَتَبِ

ونلاحظ أن الشاعر قد وظف الرموز المكانية توظيفا إيحائيا ، معتمدا على ما تشعه من معان خفية[١١٦] ، فلعل ذكر الجنة ونهر الكوثر يوحي بالدعاء للممدوح باعتلاء قصر في جنة الخلد.

---

(١١٤) السابق نفسه ، ص٥١١.
(١١٥) السابق نفسه ، ص١٤.

ويجعل قصور الملك الأمجد صاحب بعلبك سفنا يسعد الناظر إليها بمرآها، وفيها برك تفيض بالخير والبركة والماء الرائق السّيّال . يقول الشاغوري[١١٧]:

وَلَكَ القُصورُ المُنشَآتُ فَكُلُّها في بَحرِ ما تُستَحسَنُ الأَعلامُ
دورٌ حَوَت بِركاتُها بَرَكاتِها فَالسَلسَبيلُ بِها لَدَيكَ رُخامُ

ويثني على الأمير عز الدين أسامة من خلال استحسان دارٍ قد بناها ، ويصفها بالجنة وبأنها منّة لممدوحه من المولى عز وجلّ ، فحيطانها من الذهب الخالص وماؤها لجين سلسال ، وبستانها تزينه ثمارا وغصونا ميساء تحاكي الغيد الحسناوات ، وماؤه السلسال يجري بلا توقف ، وتبدو فيه ثمار النارنج بلونها البرتقالي القاني وكأنها جمر مشتعل في أغصان أشجارها الخضراء . إنها دار سرور وأمن خطط فيها ممدوحه بتدبير لاقتناص أعدائه. يقول الشاغوري[١١٨]:

أَبَنَيتَ داراً قُل لَنا أَم جَنَّةَ الـ ـمَأوى حَباكَ بِها الإِلَهُ خُلودا
حيطانُها الذَهَبُ السَبيكُ وَماؤُها ذَوبُ اللُجَينِ لِمَن أَرادَ وُرودا
وَكَأَنَّما النارِنجُ في بُستانِها يُهدي مِنَ الغيدِ الحِسانِ نُهودا
وَكَأَنَّما فيهِ الغُصونُ موائِساً رَنَّحنَ مِن هَيَفِ الخصورِ قُدودا
وَكَأَنَّما فيهِ الرُخامُ الماءُ سَيّا (م) لاً هُريقَ فَما يُطيقُ جُمودا
وَكَأَنَّما النارِنجُ نارٌ أُجِّجَت لَم تُبدِ في خُضرِ الغُصونِ خُمودا

---

(١١٦) صالح علي سليم الشتيوي : تجليات المكان في شعر عليّ بن الجهم ، مجلة جامعة دمشق مج/٢٤ ، العدد الأول + الثاني ، ٢٠٠٨ ، ص٢٠٧.
(١١٧) ديوانه ، ص٤٣٠.
(١١٨) السابق نفسه ، ص١٢٨.

دارٌ تديَّرَها السُرورُ فَقَصَّرَت عَنها القُصورُ وَصِدْتَ فِيهَا الصِّيَدا

وهو في موضع آخر من ديوانه ، يكرر وصفه لدار الأمير عز الدين أسامة بأنها تحاكي جنات عدن حسنا وجمالا ، فأين منها إيوان كسرى أو غيره من قصور مشهود لها في دقة العمارة وروعة البنيان ، إنّ رخام جدرانها يُخجل الياقوت، وحسنها يُخفض من منزلة كنيسة القيامة في عين النصارى . يقول الشّاغوري[١١٩]:

أَرى الشامَ خَدّاً بِوَجهِ الكَعاب وَسيرَتُهُ فيهِ خالٌ وَشامَهْ
وَجَنَّةَ عَدنٍ حَكَت دارُهُ فَلا بَرِحَتْ مِنهُ دارَ المُقامَهْ
فَإيوانُ كِسرى وَكُلُّ القُصور تُقايَسُ مِن ظُفرِها بِالقُلامَهْ
يَرُدُّ اليَواقيتَ تَرخيمُها وَقَد خَجِلَت مِنهُ أَدنى رُخامَهْ
تُصَغِّرُ عِندَ النَصارى إِذا رَأَوا حُسنَها وَدُماها قُمامَهْ

وكثيرا ما يتردد في شعر الشاغوري لفظ (الحرب) ومترادفاته لوصف شجاعة ممدوحه وحسن بلائه في أرض المعركة ، فمن ذلك قوله[١٢٠]:

ما أَمَّ جَيشاً وَلا انتَحى بَلَداً إِلّا اِنثَنى بِالتَأييدِ وَالنَصرِ
لِلحَربِ مِنهُ اللَيثُ المُدِلُّ إِذا كَرَّ صَئولاً في الجَحفَلِ المَجْرِ

فممدوحه مؤيدا بالنصر أينما حلّ ، ويصف شجاعته في أرض المعركة ، مصورا كره وسطوته على أعدائه ، فهو يقهرهم كالليث بلا هوادة.

---

(١١٩) ديوانه ، ص٤٤٣.
(١٢٠) السابق نفسه ، ص١٧٢.

ويتردد في شعره تصوير ممدوحه ليثا يصول في أرض المعركة ، فدماء الأعداء هي الماء الذي يرويه وعرينه الذي يأويه ما يحصده من رماحهم . يقول[١٢١]:

هُوَ اللَّيثُ في يَومِ الكَريهَةِ مُقْدِماً لَهُ الدَّمُ غَيْلٌ وَالذَوابِلُ غِيلُ[١٢٢]

ويكثر في مدائحه الحديث عن الأماكن التي تم تحريرها أو الذّود عنها . فمن ذلك قصيدته التي يمدح فيها صلاح الدين الأيوبي لتحريره المسجد الأقصى ، مستعيدا بهذا الفتح سيرة المسلمين الأوائل وفتوحاتهم المزدهرة . يقول فِتيان الشّاغوري[١٢٣]:

وَرَدَدتَ دينَ اللهِ بَعدَ قُطوبِهِ بِالمَسجِدِ الأَقصى بِوَجهٍ مُسفِرِ
وَأَعَدتَ ما أَبداهُ قَبلَكَ فاتِحًا عَمرٌو فأَنتَ شَريكُهُ في المَتجَرِ
حَتّى جَمَعتَ لِمَعشَرِ الإِسلامِ بَيـ ـنَ الصَخرَةِ العُظمى وَبَينَ المَشْعَرِ

ويمدح الشاغوري الأمير بدر الدين مودود سلطان دمشق زمن الأيوبيين ، ويهنئه بفتح قلعة كوكب التي فتحها الناصر صلاح الدين الأيوبي فيقول[١٢٤]:

عَجِبتُ وَلَكِن لاتَ حينَ تَعَجّبِ وَهَل عَجبٌ بَدرٌ يُهَنّا بِكَوكَبِ

فقد توسل بالتورية في (كوكب) ومناسبتها لاسم الممدوح (بدر) ، في إعلاء منزلة ممدوحه وتعظيم شأنه في معرض التهنئة بالنصر.

---

(١٢١) ديوانه ، ص٣٣٧.
(١٢٢) الغيْل : الماء الجاري على وجه الأرض ، والغِيل : الشجر الكثيف الملتف الذي يستتر فيه، وهو عرين الأسد ، والذوابل : الرماح الدقيقة.
(١٢٣) ديوانه ، ص١٤٣.
(١٢٤) السابق نفسه ، ص٢٣.

ويذكر ما فعله الملك العادل من صده الفرنج عن حمص خائبين عام ٦٠٤هـ ، ويسوق ذلك في لون من السخرية حيث يتهكم عليهم ، ويدعوهم لملاقاة سيف ممدوحه مرة أخرى ليصيبهم الخزي الذي فروا به . يقول[١٢٥]:

قُل لِلفرنجِ الأولى في عُقرِ دارِهِمُ
غُزوا فَجاسَت خِلالَ الدارِ غاراتُ
عودوا إِلى حِمصَ فَالسَيفُ الَّذي زَهَقَت
بِهِ نُفوسُكُمُ يَدعو بِأَن تاتوا

ثالثا: المكان والمرأة في شعر فِتيان الشاغوري:

جاء المكان مرتبطا بالمرأة في موضوعين من شعر الشاغوري ، أولهما ما جاء مقدمة في قصيدة المديح ، وهو تقليد شعري قديم معروف ، والآخر في القصائد التي أفردها الشاعر للتغزل بمحبوباته .

فمن اللون الأول مقدمته الطويلة في مدح الملك الأمجد مجد الدين برهام شاه بن فرخشاه صاحب بَعْلَبَك ، حيث يقول[١٢٦]:

ضُرِبَت لِزَينَبَ بِالغُوَيرِ خِيامُ فَعَلى الغُوَيرِ وَساكِنيهِ سَلامُ
تِلكَ المَرابِعُ تصرَعُ الآسادَ بِالـ لَحَظاتِ في عَرَصاتِها الأَيّامُ
كَم عُروَةٍ فُصِمَت لِعُروَةَ عِندها حَتّى بَكى أَسَفاً عَلَيهِ حِزامُ
أَظُبا جُفونٍ أَم جُفونُ ظِبائِها تَرنو فَكُلُّ لِحاظِهِنَّ حُسامُ

(١٢٥) ديوانه ، ص٥٣.
(١٢٦) السابق نفسه ، ص٤٢٥.

تِلكَ الحَواجِبُ أَم قِسِيٌّ أُرسِلَت عَنهُنَّ مِن أَلحاظِهِنَّ سِهامُ

يبدأ الشاعر مقدمته الغزلية بتحية خيام زينب بالغوير ، ويتذكر مرابع الغوير التي طالما صُرع فيها الرجال بسهام أعين الحسناوات . ولعل هذا الاستهلال التقليدي في مطلع المدحة قد جعله يستدعي أحد شعراء الجاهلية المتيمين ، ألا وهو عروة بن حِزام الذي عُرف بولهه بابنة عمّه عفراء ، ثم يتغنى بجمال عيون حسناوات الغوير التي لها وقع السيوف والسهام على عشاقهن.

ويذكره وميض البرق الذي يتلألأ على (الغوير) بلياليه في (نجد) ، فيتوق إلى (العذيب) بشجره وظله الظليل ، ويحن إلى رند الحمى وبَشام وادي نُخَب برائحته

العطرة الزكية ، فكلها مواضع قد جمعته بمن يهوى ، ولكن لاسبيل إلى الوصل. يقول الشاغوري[١٢٧]:

أَصبو إِلى أَثلاتِ نَجدٍ كُلَّما
وَمضُ البَريقِ عَلى الغُوَيرِ يُشامُ
وَيَشوقُني ضالُ العُذَيبِ وَظِلُّهُ الـ
ـضافي وَرَندٌ بِالحِمى وَبِشامُ
كَيفَ السَبيلُ وَقَد قَضى قاضي الهَوى
فيهِ بِقَتلي وَالغَريمُ غَرامُ

([١٢٧]) ديوانه ، ص٤٢٥ ، ٤٢٦.

ويمضي الشاغوري مصورا الوصل الذي عزّ وقد تحقق بزيارة طيف الحبيبة، فقد جاءه من (حاجر) إلى دياره بالشام مترجلا مستترا بالظلام ، ولم يخفه أو يثنه عن الإلمام مَلامٌ . يقول[١٢٨]:

زارَ الحَبيبُ ولاتَ حينَ زِيارَةٍ إذ لَم يَرُعهُ عَنِ اللِّمامِ مَلامُ
في لَيلَةٍ مُتَرَجِّلًا مِن حاجِرٍ عَسفًا وَقَد رَكِبَ الظَلامَ ظلامُ
واهاً لَهُ أَنّى اِهتَدى لَمّا سَرى مِن حاجِرٍ نَحوي وَداري الشامُ
وافى إِلَيَّ مُخاطِبًا في النَومِ مَن لَم يَبدُ لي يَقظانَ مِنهُ كَلامُ

ويتذكر الشاعر الحديث الذي دار بينه وبين محبوبته ليلة عزم قومها الرحيل ، مصورا حسرته وألمه وأن القادم ليس رحيلا وفراقا وإنما موت وحمام ، ففراقها موت للشاعر ونهاية محتومة . يقول الشاغوري[١٢٩]:

ما أَنسَ لا أَنسَ الحَبيبَ وَقَولَهُ أَزِفَ الرَحيلُ غَداً وَعَزَّ مُقامُ
قالوا غَداً يَومُ النَوى فَأَجَبتُهُمْ لا بَل يُحَمُّ لَدى الفِراقِ حِمامُ

إنّ المكان في المقدمة السابقة قد شكّل محور الأحداث ، حيث الغوير ومرابعها وحسناواتها ، ثم اشتياق الشاعر لنجد وماء العذيب والحمى ووادي نخب حيث ذكرياته مع من يهوى ، ثم حاجر وتكبد طيف المحبوبة مشقة المجيء منها إلى الشام حيث يقيم الشاعر ، وأخيرا حديث الرحيل والذي يكشف ضمنيا عن الانتقال من مكان إلى آخر . فالشاعر قد وظف المكان واتكأ عليه في تحريك الأحداث في استهلاله الغزلي للمدحة.

---

(١٢٨) السابق نفسه ، ص٤٢٦.

(١٢٩) ديوانه ، ص٤٨٠.

ومن اللون الأول أيضا المقدمة الغزلية التي استهل بها قصيدته في مدح الأمير سيف بن تُبَل أمير العرب ، حيث يقول(١٣٠):

إنّي إذا لاحَ البَريقُ يَماني لأَهيمُ مِن طَرَبٍ إلى نُعمانِ
وَيَشوقُني نَجدٌ وَظِلُّ المُنحَنى وَالخيفُ وَالجَرْعاءُ وَالعَلمانِ
للهِ أَيّامي بِجَوّ سُوَيقَةٍ وَرَقيبُنا قاصٍ وَشَملي داني
أَيّامَ أَسحَبُ مِطرَفي بِالرَوضِ بَيـ ـنَ الشيحِ وَالقَيصومِ وَالحَوذانِ
وَلَدَيَّ غيدٌ كَالشُموسِ سَوافِرًا يَهزُزنَ في كُثُبٍ غُصونَ البانِ
يَبسِمنَ عَن نَورِ الأَقاحِ وَقَد حَكَت وَجناتُهُنَّ شَقائِقَ النُعمانِ
إِذ ساعَدتُ سُعدى وَسَلمى سَلَّمَت وَسُرِرتُ مِن حَسناءَ بِالإِحسانِ
فَهُناكَ عايَنتُ الأُسودَ صَريعَةً بَينَ النَقا بِلواحِظِ الغِزلانِ
يَرمينَ نَبلاً عَن قِسِيّ حَواجِبٍ يَقتُلنَنا عَمداً وَهُنَّ رواني
واهاً لَهُ زَمَناً أَنيقاً مُهدِياً نيلَ الأَماني تَحتَ ظِلِّ أَمانِ

فقد حشد الشاغوري في مقدمته أسماء أمكنة عدة (نعمان ونجد والخيف والجرعاء والعلمان وسويقة) وكلها قد نعم فيها برفقة حسناوات في مأمن من أعين الرقباء ، ذكر منهن سُعدى وسلمى وحسناء متوسلا بالجناس في صياغة معانيه . ولا يخفى أن سلمى وسعدى من الأسماء التي ترددت بكثرة في القصائد الغزلية الجاهلية ، ويبدو حنين الشاعر إلى النباتات التي أحاطته في هذه الأنحناء من الشيح والقيصوم والحوذان حيث رافقته لياليه مع من أحب ، أما وصفه لمن يتغزل بهن فقد جاء مستوحيا البيئة الصحراوية أيضا على غرار الغزل الجاهلي ،

(١٣٠) **السابق نفسه ، ص٥١٢.**

فقد جعل لهن لواحظ غزلان يرمين نبلا على العاشقين ، فيسقطون صرعى بين كثبان النقا . ولعل الشاعر أراد بهذا الحشد المكاني وما يتبعه من متعلقات بالمكان ، أن يشعرنا بأنه يمتلك ذكريات أيام لهو وعشق في هذه المواضع ، وأن الأمر ليس مجرد تقليد فني يستهل به مدحته.

ويستهل الشاغوري قصيدته في مدح الملك الأشرف مظفر الدين شاه أرمن بالغزل بفتاة من نجد قد هجرته بعد الرضا والوصل ، وهو يحمِّل صَبَا نجد السلام إليها لعلها ترضى ، ويتذكر أيام وصلها بالحمى وكيف كانت لياليه مشرقة بهية ، ينعم فيها باحتساء خمر عينيها وكفيها ، ثم يتحسر لتحولها عنه وكأن رضاها قد بات حراما . يقول[١٣١]:

انثَنى يُثني عَلى نُعمى النُعامى حينَ حَيَّتهُ بِأَنفاسِ الخُزامى
وَتَنادى يا صَبا نَجدٍ مَتى زُرتَ سَلمى أَقرِها عَنّي السَلاما
لَيتَ أَيّامَ الحِمى دامَت لَنا أَيُّ عَيشٍ سَرَّ ذا وَجدٍ فَداما
بِينَما أَيّامُنا مُشرِقَةٌ بِالرِضى بُدِّلنَ بِالسُخطِ ظَلاما
أَرضَعَتنا دَرَّ أَخلافِ المُنى في أَمانٍ ثُمَّ عَجَّلنَ الفِطاما
فَكَأَنَّ الهَجرَ قَد أَضحى حَلالًا وَكَأَنَّ الوَصلَ قَد أَمسى حَراما
باتَ يَسقيني مُداماً أَشبَهَت نارَ إِبراهيمَ بَرداً وَسَلاما
يا لَها مِن لَيلَةٍ بِتُّ بِعَيـ نَيهِ أُسقى وَبِكَفَّيهِ المُداما

(١٣١) ديوانه ، ص٣٩٩.

ويتناص الشاغوري في هذه المقدمة مع إحدى المقدمات الغزلية التي استهل بها البحتري مدحه للخليفة جعفر المتوكل ، والتي منها قوله[١٣٢]:

أُلامُ عَلى هَواكِ وَلَيسَ عَدلاً إِذا أَحبَبتُ مِثلَكِ أَن أُلاما
لَقَد حَرَّمتِ مِن وَصلي حَلالاً وَقَد حَلَّلتِ مِن هَجري حَراما
تَناءَت دارُ عَلوَةَ بَعدَ قُربٍ فَهَل رَكبٌ يُبَلِّغُها السَّلاما
وَرُبَّتَ لَيلَةٍ قَد بِتُّ أُسقى بِعَينَيها وَكَفَّيها المُداما

حيث نجد المعنى ذاته في مقدمة الشاغوري ، بل وربما أوحت إليه مقدمة البحتري الغزلية في محبوبته (عَلوة) الحلبية بمقدمته هو في سلمى بنجد .

وقد يستهل مدحته بحديث الطيف ، حيث زاره طيف محبوبته متكبدا مشاق الانتقال ليلا من بغداد إلى حيث يقيم الشاعر في الشام ، وعلى الرغم من المشقة التي تكبدها الطيف وصولا إلى الشاعر ، فإنه ألمّ مبتهجا فرحا لا يعتريه عبوسا ولا يشكو أينا ، وإلمامته هذه قد ردت إلى الشاعر روحه التي قد سلبها وجده بالمحبوبة وبعدها عنه . ويمضي الشاغوري واصفا ليلته في مصاحبة الطيف . يقول[١٣٣]:

إِلمامُ طَيفٍ شَنيبِ الثَّغرِ أَلماهُ أَحيا قَتيلَ هَواهُ حينَ حَيّاهُ
طَيفٌ أَلَمَّ وَلَمّا يَدرِ صاحِبُهُ أَحسِن بِهِ وَبِمُهديهِ وَمُهداهُ
سَرى إِلى الشامِ مِن بَغدادَ مُعتَسِفًا وَاللَيلُ مُعتَكِرٌ بُعدًا لِمَسراهُ

---

(١٣٢) البحتري : ديوان البحتري ، تحقق وشرح حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ ، مج /٣ ، ص٢٠٠٨ ، ٢٠٠٩.
(١٣٣) ديوانه ، ص٥٧٢.

داسَ الأَقاحيصَ وَالأُدحِيَّ مُبتَسِمًا لَم يَشكُ أَيناً وَلَم يَسهَم مُحَيّاهُ
صافَحتهُ وَلَثَمتُ الثَّغرَ مُرتَشِفًا فَفي يَدي وَفَمي كَالمِسكِ رَيّاهُ

أما اللون الآخر ، فهو القصائد التي أفردها الشاغوري للغزل ، وكان حريصا فيها على استعادة ذكرياته في الأماكن التي جمعته بمحبوبته ، فلا شك أن هناك "علاقة حميمية بين المكان ونفسية الإنسان ، فهو يؤثر في أحاسيس الإنسان ومشاعره ، ويتحكم بحالته النفسية أشد التحكم ، كما يعكس ذكرياته الماضية وأحلامه التي يمكن استعادتها بمساعدة التأمل الشعري"[١٣٤] ، فالمكان عندما تستعيده تأملاتنا فإنه يكشف "لا عن وجوده الواقعي ، بل عن بعده العاطفي الذي اندس في موجوداتنا الشعرية والجمالية ، فهو يعيش في داخل جهازنا العصبي كمجموعة من ردود الأفعال التي لا تكرر الوجود المادي المشخص له ، بل بوصفه ذكرى ، ومن هنا تصبح صورته ذات طبيعة شعرية"[١٣٥].

ومن قصائده التي أفردها للغزل ، وضمت كثيرا من أماكن ذكرياته مع المحبوبة قوله[١٣٦]:

أَيّامُنا بِالرَقمَتَينِ تَوَلَّتِ فَعَلَيَّ أَنواعُ الهُمومِ تَوَلَّتِ
كَم لَيلَةٍ لي بِالعُذَيبِ وَحاجِرٍ قَصُرَت لَقَد كَثُرَت لَدَيَّ وَقَلَّتِ

---

(١٣٤) حسام عمر جلال التميمي : جماليات المكان في شعر البحتري ، المؤتمر العام للغة العربية، الجامعة الإسلامية بغزة – فلسطين ، ٢٠٠٠ ، ص٢٩٠.

(١٣٥) علي حداد : جماليات المكان عبر ذاكرة الطفولة (قراءة في الانبهار والدهشة لزيد مطيع دماج) ، أوراق ندوة زيد مطيع دماج ؛ سيرة وطنية حافلة بالإبداع ، اليمن ، يوليو ، ٢٠٠٩ ، ص٣.

(١٣٦) ديوانه ، ص٥٧ ، ٥٨.

فَكَأَنَّها أُنشوطَةٌ عَبَثَت بِها كَفُّ الصَباحِ مُجاذِباً فَانحَلَّتِ
وَغريرَةٍ رَقَّت قَساوَةُ قَلبِها فَرَثَت لِفَيضِ مَدامِعي المُنهَلَّةِ
فَكَأَنَّها إِذ فارَقَت أَترابَها في الحُسنِ واسِطَةُ الفِرِندِ انسَلَّتِ
غارَت غُصونُ البانِ في كُثُبِ النَقا لَمّا تَثَنَّت بَينَ ثِنتَيْ حُلَّةِ
فَضَمَمتُها شَوقاً فَكَم مِن نَهلَةٍ لي مِن ثَناياها العِذابِ وَعلَّةِ
فَتَبَسَّمَت عَن أُقحُوانٍ ناضِرٍ في رَوضَةٍ بِالحَزنِ لَيلاً طُلَّتِ

ونلاحظ أن المكان -إن جاز القول- قد شكّل أعمدة الأحداث في القصيدة، حيث يبدأ الشاغوري بتذكر (الرقمتين) والأيام التي قضاها في رحابها ينعم بوصل محبوبته ، وكذلك لياليه التي قضاها بالعذيب وحاجر ، فقد رقّت له فتاته ورحمت دمعه المنهلّ ، وكم كانت ليالي الوصل قصيرة فبدت وكأنها أُنشوطَة ، عقدت ليلا وما لبست أن داعبتها نسائم الصباح فانحلت ، ويتابع الشاعر تصويره للهوه مع فتاته ، وغيرة غصون البان من حسن قدها وليونته ، وهو في ذلك أيضا لا يغفل تحديد مكان هذه الغصون ، إذ جعلها منتشرة وسط كثيب من الرمال ، كما توسل بروضة الحزْن وما تنشره أزهارها من أريج طيب ، لوصف ثغر محبوبته ورائحته الزكية ، كما وصف الروضة بأنها ندية قاصدا بذلك رضاب محبوبته الذي لا يجف ماؤه.

وكثيرا ما ترتبط غزلياته بذكر الأماكن التي جمعته بأحبته ، فهو في إحدى غزلياته يتذكر لياليه وأسماره في (رامة) برفقة محبوبته أسماء ، التي نأت وتركته يعاني الوجد ويبكي الفراق ، وقد أثار شجونه هديل الحمام وتغريد القماري فوق أغصان بانات الحمى ، ولأن المكان هو مصدر سعادته إذا جمعه بمن أحب

، فالشاغوري يخاطب محبوبته بنسبتها إلى (نجد) التي فرقت بينهما ، ويؤكد أن قلبه هو ديار أحبابه ومنازلهم التي يبقون فيها بلا ترحال. يقول فِتيان [١٣٧]:

لَنا بَرامَةَ أَوطانٌ وَأَوطارُ وَمِن لَيالي هَوى أَسماءَ أَسمارُ
أُسِرُّ وَجداً وَلَكِنّي أُصِرُّ عَلى الـ ـبُكا وَلِلصَّبِّ إِسرارٌ وَإِصرارُ
حَمامَ بانِ الحِمَى هَيَّجتَ لي شَجَنًا وَبِالنَقا تُثمِرُ الأَشجان أَشجارُ
بِهِ القَماري عَلى الباناتِ صادِحَةٌ وَفي القِبابِ عَلى الأَغصانِ أَقمارُ
لِيَهْنِ سُكانَ نَجدٍ أَنَّ مَسكَنَهُمْ قَلبي وَإِن نَزَحَت ما بَينَنا الدارُ
أَستَودِعُ اللهَ جيراناً كَلَفتُ بِهِمْ جاروا وَعِندَهُمُ لا يحفَظُ الجارُ

وفي غزلية أخرى يسأل أصحابه أن يقفوا بكاظمة حيث ديار أحبته الذين اعتزموا الرحيل ، ثم يخبرونه عما إذا كان أحبته لا يزالون في الحيّ أم أنهم ارتحلوا، ويؤكد على أنه قد جعل قلبه مسكنا لهواه ، ثم يقف على ربع أحبته باكيا متحسرا لفراقهم ، وإذا بأطلال أحبته تنفطر لألمه وتشاركه الأسى والدمع . يقول الشاغوري[١٣٨]:

بِكاظِمَةٍ قِفوا وَسَلوا أَقامَ الحَيُّ أَم رَحَلوا
إِن ارتَحَلوا فَعَنْ قَلبي هَواهُمْ لَيسَ يَرتَحِلُ
فُؤادي فيهِ مُشتَغِلٌ وَفُودي فيهِ مُشتَعِلُ
وَلَستُ أَشِحُّ يَوماً أَن أَسُحَّ الدَمعَ يَنهَمِلُ
هُمُ وَصَلوا إِلى قَتلي بِبَينِهِمُ وَما وَصَلوا

---

(١٣٧) ديوانه ، ص١٥٧.

(١٣٨) ديوانه ، ص٣٨١.

بَكَيتُ بِرَبعِهِم حَتّى بَكا مِن رَحمَتي الطَلَلُ
فَفي قَلبي لِبَينِهِمُ جُروحٌ لَيسَ تَندَمِلُ

وفي قصيدة أخرى يطلب من صاحبه الوقوف على ربع محبوبته سلمى بنجد ، متسائلا في حيرة عن حال الربع مع أغيار الزمن ، ثم يحمّله السلام إلى ربى نجد فلطالما كانت له فيها ذكريات قديمة مع أحبته ، ويدعو لهذه المواضع بالسقيا ولكن بلا أذى أو تدمير ، ويستبد به الحنين لنسائم نجد ورياضها التي تنمقها الزهور، وتتوق نفسه للغوير ويتمنى لو أنه يقبِّل حصاه الطيب ويستاف من ترابه العطر ، فقد شهد الغوير شبابه وهيام الحسناوات به ، ويتذكر ما كان لهن من حسن ونعومة ولين فيقول[١٣٩]:

خَليلي بِالحِمى عَرِّج وَسَل ما تُرى فَعلَ الزَمانُ بِرَبعِ سَلمى
وَأَهدِ إِلى رُبى نَجدٍ سَلامي فَتِلكَ مَعاهِدُ الأَحبابِ قِدْما
سَقَتها ديمَةٌ هَطلاءُ تَهمي وَلا تَمحو لَها طَلَلاً وَرَسما
أَلا يا حَبَّذا نَفَحاتُ نَجدٍ وَزَهرُ الرَّوضِ مِثلُ الوَشْيِ رَقْما
وَدِدتُ بِأَنَّني أَستافُ تُربَ الـ ـغُوَيرِ وَأوسِعُ الحَصباءَ لَثْما
بِهِ كانَ الشَبابُ لَنا شَفيعًا وَلَونُ الشَعرِ أَسوَدَ مُدلَهِمّا
إِذِ البيضُ الحِسانُ رَوافِل في الـ ـحَريرِ وَهُنَّ أَنعَمُ مِنهُ جِسما

(١٣٩) السابق نفسه ، ص٤٧٢.

ويتكئ الشاغوري في غزله على مظاهر الطبيعة المختلفة لتصوير شجونه وفرط صبابته ، فمن ذلك توسله بالجبال في تجسيد معاناته في هواه ، إذ يتحمل من آلام الصبابة والوجد ما تنوء الجبال عن حمله فيقول(١٤٠):

ما تَستَطيعُ الجِبالُ الشمُّ حَملَ باتي فَماذا عَسى أَن تَحمِلَ

ويوظف الشاغوري لفظ (البحر) في معرض الغزل ، مصورا فرط صبابته ووجده فيجعل عشقه لمن يهوى بحرا عميقا ، يجوب بين أمواجه العاتية منجرفا إلى الأعماق . يقول(١٤١):

هَواكَ بَحرٌ عَميقٌ لا قَرارَ لَهُ وَها أَنا الآنَ مِنهُ غُصتُ في

ويلح الشاغوري على المعنى السابق في غزلياته ، حيث يصور نفسه غارقاعشقا في لُجّة ليس إلى النجاة منها سبيل فيقول(١٤٢):

مَنْ مُنقِذي مِنْ مُنقِذِيٍّ عِشقُهُ بَحرٌ غَرِقتُ بِهِ وَما لِيَ مُنقِذُ

المكان وأغراض شعرية أخرى:

ومثلما أسند الشاغوري إلى كلمة (الأرض) لفظتي (ملوك وملك) واتكأ عليهما في المديح ، نراه يسند كلمة (بطن) إلى الأرض ويوظفهما في فنون شعرية متنوعة ؛ فمن ذلك توظيفها في الرثاء للدلالة على قبر المتوفى . يقول(١٤٣):

---

(١٤٠) السابق ، ص

(١٤١) السابق ، ص٧٩.

(١٤٢) ديوانه ، ص١٣٨.

(١٤٣) السابق ، ص٥٤٦.

وَقَد كانَ بَطنُ الأَرضِ يَحسُدُ ظَهرَها

فَمُذ مِتّ أَمسى ظَهرُها يَحسُدُ البَطْنَا

وفي لون من التحديد تأتي كلمة (الأرض) بين ثنائية ضدية تتصل بالاتجاهات ، حيث يتوسل بذلك في الإحاطة بالدنيا بأسرها ؛ ومن ذلك قوله في رثاء الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي(١٤٤):

أَتى نَعيُ مَلْكٍ أَظلَمَ الشَمسُ وَالقَمَر لَهُ وَوَهَى عِقدُ الكَواكِبِ فَانتَثَر

وَأَبدى بِشَرقِ الأَرضِ وَالغَربِ رَجفَةً تَطَأطَأَ مِنها كُلُّ ما طالَ وَاشْمَخَر

فقد زلزل نبأ وفاة المرثي الأرض جميعها من مشرقها إلى مغربها ، فأصاب الجميع بالهلع والانحناء.

وفي معرض الهجاء يتوسل بالثنائية الضدية (ظاهر / باطن) بعد إسنادها إلى لفظة (الأرض) للسخرية من المهجو ، فهو طبيب يحيا في قرية تُدعى (كفر عامر) ، ووجوده فيها سيحقق العمار لباطنها والقفر لظاهرها ؛ فلا شفاء لمريض ولا عمران إلا للقبر!! يقول الشاغوري(١٤٥):

إِن دامَ طِبُّكَ هَذا يا نَصرُ في كَفرِ عامِرْ

عَمَّرتَ عَمّا قَليلٍ بِساكِنِيها المَقابِرْ

فَظاهِرُ الأَرضِ قَفرٌ وَباطِنُ الأَرضِ عامِرْ

---

(١٤٤) **ديوانه ، ص٢١٠ ، ٢١١.**

(١٤٥) **السابق نفسه ، ص٢٠٤.**

وإذا أردنا جمع ما تقدم قلنا:

أولا : نشأ المفهوم الاصطلاحي للمكان مرتبطا بالفلسفة.

ثانيا : استعادة المكان في الأدب له دلالة نفسية خاصة ، فهو يكشف عن أبعاد عاطفية يتحول خلالها المكان من واقع جغرافي إلى كتلة من الأحاسيس والمشاعر تشكل نسيج العمل الأدبي.

ثالثا : كشفت دراسة المكان في شعر الشاغوري عن شغفه الشديد بالأماكن التي عاش في كنفها وبخاصة دمشق والزبداني ، مما يؤكد حضور البعد الانتمائي للمكان في شعره ، إلا أنه – إن جاز القول– انتماء ناقص ، فهو انتماء وعشق للمكان وليس لأهله الذين لم يقدروه حق تقدير ، ولم يحظ في كنفهم بالمنزلة التي استشعرها في ذاته.

رابعا : شكّل المكان عنصرا رئيسا في قصيدته المدحية ، وبدا حضور المكان العام مثل الأرض والجبل والنهر بكثافة في شعره ، حيث اتكأ على ما توحيه هذه الألفاظ المكانية في الإشادة بالممدوح وتصوير منزلته وتفرده وسمو خصاله. وشغل حديث الأرض مساحة بارزة في شعره المدحي.

خامسا : بدت أنسنة المكان واضحة في قصيدة المديح عند الشاغوري ؛ فالمكان يتيه تفاخرا وعجبا عندما يحلّه الممدوح ، ويبكي حسرة وشوقا إذا ما رحل عنه.

سادسا : عُني الشاغوري بوصف المكان المرتبط بالممدوح من قصور ورياض وبساتين وغيرها ، قاصدا بذلك الثناء على الممدوح والإشادة به.

سابعا : يكثر في شعر الشاغوري ذكر لفظ (الحرب) ومترادفاته لوصف شجاعة ممدوحه وحسن بلائه في أرض المعركة ، كما يكثر من ذكر الأماكن التي تم تحريرها أو الذّود عنها من قبل الممدوح.

ثامنا : جاء المكان المرتبط بالمرأة في موضعين من شعر الشاغوري : أولهما جاء في مقدمة قصيدة المديح ، والآخر في القصائد التي أفردها الشاعر للغزل.

تاسعا : بدا اللون الأول تقليدا شعريا قديما يذكر فيه الشاعر مرابع الأحبة ويحشد عددا من المواضع التي جمعته بهن ، كما يكثر من ذكر أسماء نساء ترددت في قصائد أعلام الشعراء السابقين على عصره ، ولا يغفل تصوير طيف الحبيبة وزورته متكبدا المشاق حتى يصل إلى مكان وجود الشاعر.

عاشرا : يرسم الشّاغوري في اللون الآخر لوحات فنية ، يبدو فيها المكان محورا لاستعادة ذكرياته مع المحبوبة من سعادة وصل وآلام صدّ ، فقد توسل بالمكان في تجسيد أفراحه وأتراحه ، حيث بدا المكان محركا فعليا لما يختزن في نفسه من سعادة وآلام.

حادي عشر : لم يخلُ موضوع من موضوعات شعر الشاغوري من توظيف للمكان، فقد اتكأ عليه في تصوير كلفه بموطنه ، وكذلك أيضا وظفه في مديحه وغزله ورثائه وهجائه . إن المكان قد بدا في شعره بعامة أداة من أدوات التشكيل الشعريّ.

المصادر والمراجع:

_ ابن خلّكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٨ ، مج/٤.

_ ابن دريد : كتاب جمهرة اللغة ، تحقيق رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين ، ط/١ ، ١٩٨٧ .

_ ابن منظور : لسان العرب ، دار المعارف ، ج/٦ .

_ أرسطوطاليس : الطبيعة ، حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي ، ط/٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤.

_ الأزهري : معجم تهذيب اللغة ، تحقيق علي حسن هلالي ، مراجعة محمد علي النجار ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ج/١٠ .

_ باديس فوغالي : الزمان والمكان في الشعر الجاهلي ، عالم الكتب الحديث ، جدار للكتاب العالمي ، إربد ، ط/١ ، ٢٠٠٨ .

_ البحتري : ديوان البحتري ، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ ، مج /٣.

_ التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، تحقيق رفيق العجم ، علي دحروج ، مكتبة لبنان ، ط/١ ، ١٩٩٦.

_ جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت – لبنان ، مكتبة المدرسة ، بيروت – لبنان ، ١٩٨٢ ، ج/٢ .

_ حبيب مونسي : فلسفة المكان في الشعر العربي ، قراءة موضوعاتية جمالية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠١ .

_ حسام عمر جلال التميمي : جماليات المكان في شعر البحتري ، المؤتمر العام للغة العربية ، الجامعة الإسلامية بغزة – فلسطين ، ٢٠٠٠.

_ حسن مجيد العبيدي : نظرية المكان في فلسفة ابن سينا ، مراجعة وتقديم عبد الأمير الأعسم ، دار الشئون الثقافية العامة ، آفاق عربية ، العراق ، بغداد ، ط/١ ، ١٩٨٧.

_ الخليل بن أحمد الفراهيدي : كتاب العين ، ترتيب وتحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط/١ ، ٢٠٠٣ ، ج/٤ .

_ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، تحقيق بشار عواد معروف ، محبي هلال السرحان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط/١١ ، ١٩٩٦، ج/٢٢.

_ الزبيدي : تاج العروس ، تحقيق عبد الكريم العزباوي ، راجعه ضاحي عبد الباقي، خالد عبد الكريم جمعة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ط/١، ج/٣٦ .

_ صالح علي سليم الشتيوي : تجليات المكان في شعر عليّ بن الجهم ، مجلة جامعة دمشق مج/٢٤ ، العدد الأول + الثاني ، ٢٠٠٨ .

_ عبد الرحمن بدوي : مدخل جديد إلى الفلسفة ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط/١ ، ١٩٧٥.

_ عبد الرحمن بدوي : موسوعة الفلسفة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط/١ ، ١٩٨٤، ج/٢ .

_ علي حداد : جماليات المكان عبر ذاكرة الطفولة (قراءة في الانبهار والدهشة لزيد مطيع دماج) ، أوراق ندوة زيد مطيع دماج ، سيرة وطنية حافلة بالإبداع ، اليمن، يوليو ، ٢٠٠٩ .

_ علي عبد المعطي محمد : قضايا الفلسفة العامة ومباحثها ، دار المعرفة الجامعية ، الأسكندرية ، ط/٢ ، ١٩٨٤ .

_ العماد الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق شكري فيصل ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٥٥ ، قسم شعراء الشام ، ج/١.

_ غاستون باشلار : جماليات المكان ، ترجمة غالب هلسا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ط/٢ ، ١٩٨٤ .

_ غيداء أحمد سعدون : المكان والمصطلحات المقاربة له ، دراسة مفهوماتية ، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية ، كلية التربية الأساسية ، جامعة الموصل ، العراق ، ٢٠١١، مج/١١ ، ع/٢.

_ فتيان الشاغوري : ديوان فتيان الشاغوري ، تحقيق أحمد الجندي ، مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧٦.

_ الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة ، ط/٦ ، ١٩٩٨.

_ مجمع اللغة العربية : المعجم الفلسفي ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، القاهرة ، ١٩٨٣.

_ محمد عزام : شعرية المكان السردي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٥ .